وزارة التربية والتعليم
MINISTRY OF EDUCATION

المملكة العربية السعودية
وزارة التربية والتعليم

الأدب العربي

للصف الثاني الثانوي

الفصل الدراسي الثاني

جميع الأقسام

(بنين)



طبعة ١٤٣٣ - ١٤٣٤هـ
٢٠١٢ - ٢٠١٣م

المملكة العربية السعودية
وزارة التربية والتعليم

وزارة التربية والتعليم
MINISTRY OF EDUCATION

قررت وزارة التربية والتعليم تدريس
هذا الكتاب وطبعه على نفقتها

الأدبُ العَربي

للصّفّ الثاني الثّانوي

الفصل الدّراسيّ الثاني

جميع الأقسام

(بنين)

قام بالتأليف والمراجعة
فريق من المتخصصين

طبعة
١٤٣٣ ـ ١٤٣٤هـ
٢٠١٢ ـ ٢٠١٣م

ح وزارة التربيـة والتعليم ، ١٤١٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
السعودية ـ وزارة التربية والتعليم
الأدب العربي : للصف الثاني الثانوي: الفصل الثاني - الرياض
١٠٠ ص - ٢١ × ٢٣ سم
ردمك: ٢-١٨٤ - ١٩ - ٩٩٦٠(مجموعة)
٩-١٨٦ - ١٩ - ٩٩٦٠ (ج٢)
١ - الأدب العربي - كتب دراسية ٢ -التعليم الثانوي - السعودية - كتب دراسية أ - العنوان.
ديوي ٨١٠,٧١٢ ١٩/١٩٨٢

رقم الإيداع: ١٩/٢١٨٢
ردمك: ٢-١٨٤ - ١٩ - ٩٩٦٠(مجموعة)
٩-١٨٦ - ١٩ - ٩٩٦٠ (ج٢)

لهذا المقرر قيمة مهمّة وفائدة كبيرة فلنحافظ عليه ولنجعل نظافته تشهد على حسن سلوكنا معه...

إذا لم نحتفظ بهذا المقرر في مكتبتنا الخاصة في آخر العـام للاستفادة فلنجعل مكتبة مدرستنا تحتفظ به...

موقع وزارة التربية والتعليم
www.moe.gov.sa

موقع البوابة التعليمية للتخطيط و التطوير
http://www.ed.edu.sa

بريد الإدارة العامة للمناهج
almanahej@moe.gov.sa

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد :

فهذا كتاب الأدب العربي نصوصه وتاريخه للصف الثاني الثانوي، وهو يتناول بالدراسة الميسَّرة والعرض الدقيق العصر الذهبي من عصور الأدب وهو العصر العباسي، إضافة إلى دراسة الأدب الأندلسي، ومن ثم عصر الدول المتتابعة.

وقد راعينا في تعديل هذا الكتاب ما سبق أن نهجناه في تعديل كتاب الصف الأول من السهولة والوضوح، والدقة في العرض، حيث أثبتنا فيه ما نرى أنه مناسب لمستوى الطالب والطالبة وقدراتهما. وحاولنا قدر الإمكان تجنُّب التطويل المُمِلّ، والتركيز على الإيجاز غير المُخِلّ.

ونحن نأمل- في تقديمنا لهذا الكتاب بهذه الصورة - أن نصل إلى هدف تربوي يركِّز عليه الباحثون في دراسة الأدب وفنونه، ألا وهو تربية الحسِّ الفني لدى الطالب والطالبة، والتذوق الأدبي للنصوص الأدبية الذي من شأنه مساعدتهما على التمييز بين الغثِّ والسمين، ولعلنا بهذا قد حققنا هدفًا ساميًا نبيلاً.

يدرس طلاب قسم العلوم الشرعية والعربية ومدارس تحفيظ القرآن الكريم جميع موضوعات الكتاب.

ويدرس طلاب أقسام العلوم الإدارية والاجتماعية والعلوم الطبيعية الموضوعات التالية :

- شعر الحماسة في الحروب الصليبية: موضوعات شعر الحماسة، قصيدة البهاء زهير، وقصيدة العماد الأصفهاني.
- الأدب في الأندلس: الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية، الشعر الأندلسي: أغراضه، خصائصه الفنية، من الشعر الأندلسي: ابن الأبَّار القضاعي في الرثاء، ابن زيدون في وصف الزهراء، ابن خفاجة الأندلسي في وصف جبل، النثر في الأندلس : ابن حزم في آداب مجالس العلم.
- الأدب في عصر الدول المتتابعة.

والله نسأل أن ينفع به، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

محتويات الكتاب

توزيع المقرر على أسابيع الفصل الدراسي

أولاً : قسم العلوم الشرعية والعربية ومدارس تحفيظ القرآن الكريم

الأسبوع	الموضوع
الأول	شعر الحماسة في الحروب الصليبية- نماذج من شعر الحماسة. «مع حفظ ثلاثة أبيات لابن القيسراني يحرض نور الدين على مواصلة الجهاد، وأربعة الأبيات الأولى لأحد الشعراء يستنهض همم المسلمين».
الثاني	الأدب في الأندلس: الحياة السياسية، والاجتماعية، والعقلية. الشعر الأندلسي: «مع حفظ أربعة أبيات لعبدالرحمن الداخل في الحنين إلى الوطن».
الثالث	الموشحات «مع حفظ موشحة أبي الحسن الجلياني».
الرابع	ابن سفر المريني يصف الأندلس.
الخامس	ابن حمديس الصقلي يصف بركة: «مع حفظ سبعة أبيات من أول النص» .
السادس	ابن الأبَّار القضاعي يرثي الأندلس: «مع حفظ خمسة أبيات من أول النص» .
السابع	ابن زيدون يصف الزهراء: «مع حفظ النص كاملاً».
الثامن	ابن خفاجة يصف الجبل.
التاسع	لسان الدين بن الخطيب في الغزل: «مع حفظ النص كاملاً».
العاشر	النثر الأندلسي: «ويحفظ ما قاله عبدالرحمن الداخل في حث أصحابه على القتال، ورسالته إلى خارج عليه». وصف بعوضة لابن شُهيد: «مع حفظ النص كاملاً».
الحادي عشر	من رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد.
الثاني عشر	الرسالة الهزلية لابن زيدون: «ويحفظ من أول النص إلى قوله: محاسن الخلال».
الثالث عشر	الرسالة الجدية لابن زيدون.
الرابع عشر	آداب مجالس العلم لابن حزم «ويحفظ من أول النص إلى قوله: وأسلم لدينك...».
الخامس عشر	عصر الدول المتتابعة: الحياة السياسية، والاجتماعية، والعقلية. الأدب في عصر الدول المتتابعة: الشعر، النثر.

ثانيًا : أقسام العلوم الإدارية والطبيعية والتقنية

الأسبوع	الموضوع
الأول	موضوعات شعر الحماسة: «مع حفظ أبيات لابن القيسراني يحرض نور الدين».
الثاني	قصيدة البهاء زهير - قصيدة العماد الأصفهاني: «مع حفظ خمسة أبيات للبهاء زهير من أول النص».
الثالث	الأدب في الأندلس: الحياة السياسية، والاجتماعية، والعقلية.
الرابع	الشعر الأندلسي: أغراضه وخصائصه.
الخامس و السادس	ابن الأبَّار القضاعي في الرثاء : «مع حفظ خمسة أبيات من أول النص».
السابع والثامن	ابن زيدون يصف الزهراء: «مع حفظ خمسة أبيات من أول النص».
التاسع و العاشر	ابن خفاجة يصف الجبل: «مع حفظ خمسة أبيات من أول النص».
الحادي عشر	النثر في الأندلس.
الثاني عشر	ابن حزم في آداب مجالس العلم.
الثالث عشر	الأدب في عصر الدول المتتابعة - أولًا : الشعر «مع حفظ خمسة أبيات لابن المقرب».
الرابع عشر	ثانيًا : النثر «مع حفظ المناظرة بين السيف والقلم لابن نباتة».
الخامس عشر	مراجعة عامة.

شعر الحماسة في الحروب الصليبية

لمحة تاريخية:

يُقصد بالحروب الصليبية تلك الحملات العسكرية التي وجَّهها الغرب النصراني في أوروبا إلى الشرق الإسلامي؛ بهدف احتلال بيت المقدس، والقضاء على الإسلام ووَقْف انتشاره في أوروبا، وقد استمرَّت تلك الحروب قرنين من الزمان (٤٩٠هـ- ٦٩٠هـ).

وقد اتَّفق أكثر المؤرخين على الأسباب التي حملت الصليبيين على غزو الشرق الإسلامي، وهي أسباب عديدة منها:

١- الأسباب الدينية :

وهي أقوى الأسباب وأعنفُها، وقد تعلّل الغزاة في غزوهم ديار الإسلام باضطهاد الحجَّاج النصارى حين زيارتهم بيت المقدس، والمسلمون براء من هذه الفِرْية، كما أرادوا بزعمهم تحرير القدس من أيدي المسلمين.

٢- الأسباب السياسية :

حيث كانت لدى الغرب نَزْعة حبِّ السيطرة والطمع في التوسُّع على حساب بلاد المسلمين.

٣- الأسباب الاقتصادية والتجارية :

فقد كان العالم الإسلامي ينعم بالرخاء والغِنَى وكثرة الخيرات، بينما أوروبا على النقيض من ذلك؛ ولذا أرادوا اسْتِلاب تلك الثروات والتمتع بها، ويضاف إلى ذلك رغبة تجار الغرب في إيجاد موانئ تجارية في بلاد الشرق على الساحلين الشرقي والجنوبي للبحر المتوسط، بهدف تحقيق مكاسب اقتصادية ضخمة من وراء تلك الحروب؛ ولذا أسهمت كثير من المدن الإيطالية كـ«بيزا والبندقية» في إعداد الجيوش.

٤- الأوضاع الداخلية في أوروبا:

وتتجلَّى في الحالة السيئة المضطربة التي عاش تحت وَطْأتها أهل أوروبا من فقر ومرض وجهل، حيث كان النظام الإقطاعي سائدًا في أوروبا آنذاك؛ ولذا حرصت الطبقات المُعْدِمة التي عاشت تحت نيْر الإقطاع على الهرب من هذا الشقاء.

وقد بدأت أولى الحملات سنة ٤٩٠هـ واستطاع الصليبيون أن يُكوِّنوا إماراتٍ لهم في بلاد الشام وهي : الرُّها، وأنْطَاكيَّة، وطَرَابُلس، ثم بيتُ المَقْدِس، ويُعزى انتصارهم ـ في بداية الأمر ـ إلى غفلة المسلمين وتشتُّتهم بل وتناحرهم من أجل السلطة. ثم تتابعت الحملات الصليبية على بلاد المسلمين الواحدة تلو الأخرى، دون أن تحقق أيًّا من أهدافها التي جاءت من أجلها.

وقد هبَّ المسلمون للذَوْد عن حِمَاهم بعد أول حملة، حيث بدأ عماد الدين زَنْكي مسيرة الجهاد عندما وحَّد شمال العراق والشام، ثم استولى على أول إمارة للصليبيين وهي الرُّها، ثم واصل المسيرة ابنه نور الدين محمود، حتى جاء البطل العظيم صلاح الدين الأيوبي فقضى على المؤامرات الداخلية، ووحَّد قُوَى المسلمين تحت زعامته، ثم حقَّق نصرًا مؤزرًا باسترداد بيت المقدس في موقعة حطين سنة ٥٨٣هـ التي هيأت لاسترداد بيت المقدس، حيث كانت نكبة كُبْرى على الأعداء. ثم استمرَّت مسيرة الجهاد المباركة، حيث لَمَعَ في تلك الحروب الظاهر بيبرس الذي استولى على أنطاكيَّة، والسلطان قلاوون الذي استولى على طرابلس، وأخيرًا ابنه الأشرف خليل الذي طهَّر بلاد المسلمين من رِجْس النصارى، حين استولى على عكَّا آخر معاقل الصليبيين سنة ٦٩٠هـ. وبذلك زالت دولهم وانتهى وجودهم في الشام.

أثر هذه الحروب في الشعر :

كان لهذه الحروب آثارٌ كبيرةٌ في الأدب شعرِه ونثرِه، فقد ألهبت العاطفةَ الدينيةَ، وأوقدت في صدور المسلمين- وبخاصة الشعراء- نارَالغَيْرة على الدين، والحقدَ على الغازين الغاصبين، فاتَّقدت المشاعر وامتزجت بالدم المُرَاق في ساحات الجهاد، وأصبح الشعراء يجاهدون بألسنتهم كما يجاهدون بأسلحتهم، فنتج عن هذا كمٌّ هائل من الشعر كان له أكبرُ الأثر في إبراز روح الجهاد بين الناس.

موضوعات شعر الحماسة:

نقصد بموضوعات شعر الحماسة الأغراض التي واكبت الحروب الصليبية، وكان لها علاقة بالجهاد ضد الأعداء، أما الأغراض العامة للشعر فلن نتعرَّض لها، مع أنها وإن كانت بعيدة عن الصراع بين المسلمين والصليبيين إلا أنها قد تأثرت بالجو العام زمن الحروب الصليبية.

١ - وأول ما يطالعنا من تلك الأغراض الدعوة إلى الجهاد، وهو لُبُّ الشعر في هذه الفترة والمُنْطَلَق الذي اتَّخذه الشعراء بابًا لكل المعاني والأفكار التي عالجوها في شعرهم، فقد حمل الشعراء على عواتقهم عِبْءَ الدعوةِ إلى الجهاد والاستشهاد في سبيل الله، وتوحيد الجهود لمقاومة العدو المشتَرَك الذي جاء ليقضِيَ على المسلمين ويَحْتَلَّ ديارَهم، وذلك كقول ابن القَيْسَراني يُحَرِّض نورَ الدين محمود على مواصلة الجهاد وتحرير بيت المقدس:

فَسِـرْ واملأ الـدُّنْيَا ضِيَاءً وبَهْجَةً ... فَبِالأُفُقِ الدَّاجِي إلى ذَا السَّنَا فَقْرُ[1]
كـأنِّي بِهَـذا العَزْمِ لا فُلَّ حَـدُّهُ ... وأقْصَاهُ بِالأقْصَى وقَدْ قُضِيَ الأمْـرُ
وقَدْ أصْـبَحَ البَيْتُ المقَدَّسُ طَاهِرًا ... وليسَ سِوَى جَارِي الدِّمَاءِ لهُ طُهْـرُ

٢ - ومن الأغراض وصف المعارك، وهو من الأغراض التي أبدع فيها الشعراء، حيث رسموا صورًا شعرية نابضة بالحركة والحياة، وصفوا خلالها أدوات القتال وخططَ الحرب، كقول ابن القيسراني يصف إحدى المعارك:

والخَيْلُ مِنْ تَحْتِ قَتْلَاهَا تَقِرُّ لَهَا ... قوائمٌ خَانَهُنَّ الرَّكْضُ والخَبَبُ[2]
والنَّـقْعُ فَـوْقَ صِقَالِ البِيضِ مُنْعَـقِدٌ ... كَمَا اسْـتَقَـلَّ دُخَـانٌ تَحْتَـهُ لَهَـبُ[3]
والنَّبْـلُ كَالْوَبْـلِ هَـطَّالٌ ولَيْـسَ لَهُ ... سِوَى القِسِيِّ وأيْـدٍ فَوْقَهَا سُحُبُ[4]

---

(١) السنا: الضوء.
(٢) الخبب: نوع من عدْو الخيل.
(٣) النقع: الغبار. صقال البيض: السيوف.
(٤) النبل: السهام. الوبل: المطر الغزير. القسي: جمع قوس.

٣- كما كان للمديح دور مهم، حيث أشاد الشعراء بالقادة العظام الذين حقَّقوا للأمة المسلمة انتصاراتها، وأثنوا على همم أبطال المسلمين الذين أبلوا بلاءً حسنًا في سبيل اللّه، وأعظمُ المديح ما قِيلَ في صلاح الدين كقول سِبْط بن التعاويذي:

وَنَهَضْتَ للإسْلَام نَهْضَة صَادِقِ الْـ ـعَزَمَاتِ تَرْأَبُ مِنْ ثُؤَاهُ وتَشْعَبُ[١]
وغَضِبْتَ لِلدِّينِ الحَنِيفِ ولَمْ تَزَلْ في اللَّهِ تَرْضَى مُنْذُ كُنْتَ وتَغْضَبُ
غَادَرْتَ أَهْلَ البَغْي بَيْنَ مُجَنْدَلٍ لَقِيَ الحِمَامَ وخَائفٍ يَتَرَقَّبُ[٢]

٤- وقد خلَّد الشعراء عظماء المسلمين الذين اسْتُشْهِدوا في سبيل اللَّه بقصائدَ رثائيةٍ غاية في الجودة، حيث أظهر الرثاء مآثرهم التي تركوها بعد استشهادهم كقول أبي يَعْلى القَلانِسي يرثي عِمَاد الدين زَنْكِي:

وكَمْ مَعْقِلٍ قَدْ رَامَهُ بِسُيُوفِهِ وشَامِخِ حِصْنٍ لَمْ تَفُتْهُ غَنَائمُهْ[٣]
ودَانَتْ وُلَاةُ الأمْرِ فِيهَا لِأَمْرِهِ وقَدْ أَمَّنَتْهُمْ كُتْبُهُ وخَواتِمُهْ
وكَمْ ثَغْرِ إسْلَامٍ حَمَاهُ بِسَيْفِهِ مِنَ الرُّومِ لَمَّا أَدْرَكَتْهُ مَرَاحِمُهْ

ولم يكن الرثاء مقصورًا على رثاء الأبطال وحدهم، بل كان هناك رثاء للمدن الإسلامية التي سقطت في أيدي الصليبيين، ولعلَّ مِنْ أشدِّ ما وقع على المسلمين من البلاء استيلاء الصليبيين على بيت المقدس حيث قالوا شعرًا يقطر أسًى ولوعة، ويفيض عبرة، ويدعو إلى الثأر واسترداد المدينة، وذلك كقول شهاب الدين يعقوب بن المجَاوِر يبكي القدس:

---

(١) ترأب وتشعب : تصلح . ثؤاه: فساده.
(٢) الحمام: الموت. يترقب : ينتظر.
(٣) رامه : طلبه. شامخ : عال مرتفع.

أَعَيْنِيَ لا تَرْقَيْ مِـنَ العَبَـرَاتِ ... صِلِي في البُكَا الآصَـالَ بالبُكَرَاتِ[1]
لَعَلَّ سُيُولَ الدَّمْعِ يُطْفِئُ فَيْضُهَا ... تَوَقُّدَ مَا في القَلْبِ مِنْ جَمَـراتِ
عَلَى المسْجِدِ الأَقْصَى الـذي جَلَّ قَدْرُهُ ... عَلَى مَوْطِنِ الإِخْبَاتِ والصَّـلَوَاتِ[2]
عَلَى القِبْلَةِ الأُولَى التِي اتَّجَهَتْ لَهَا ... صَلَاةُ البَرَايَا في اخْتِلَافِ جِهَـاتِ

٥- كما أدى الهجاء دورًا لا يمكن إغفاله، وهو إما هجاء للأعداء الصليبيين بتخلُّفهم وخيانتهم وانحرافهم عن الدين، وإما هجاء للمتعاونين مع الأعداء أو المتخاذلين عن القتال أو المستسلمين، كقول أسامةَ بن مُنْقِذ يعاتب مُعين الدولة على استسلامه للفرنج عتابًا أقرب إلى الهجاء حيث يقول:

أيْنَ الحَمِيَّةُ والنَّفْـسُ الأَبِيَّةُ إذْ ... سَامُوكَ خُطَّةَ خَسْفٍ عَارُهَا يَصِمُ[3]
هَـلَّا أَنِفْـتَ حَيَاءً أو مُـحَـافَظَةً ... مِنْ فِعْلٍ مَا أَنْكَرَتْهُ العُرْبُ والعَجَمُ[4]
أَسْلَمْتَنَا وسُيُـوفُ الهِـنْدِ مُغْمَـدَةٌ ... ولَمْ يُـرَوَّ سِنَانَ السَّـمْهَرِيِّ دَمُ[5]
هَـبْنَا جَنَيْـنَا ذُنُوبًا لا يُـكَفِّرُهَا ... عُذْرٌ، فَمَاذَا جَنَى الأَطْفَالُ والحُـرَمُ

وبَعْد: فهذه هي أبرز موضوعات شعر الحماسة، يُضاف إليها بعض الموضوعات التي لم تُطْرق بكثرة، كالشعر الذي يدور حول **الاستغاثة والدعاء**، أو **الرد على اليهود والنصارى**، كما كثرت في هذه الفترة **المدائح النبويـة**.

---

(١) لا ترقي : لا تكُفِّي. الآصال : آخر النهار، والبُكَرَات: أوله.

(٢) الإخبات : الخشوع.

(٣) سامه خسفًا : أنزله به وأراده عليه، والخسْف : الذل. يَصِم: يعيب ويشين.

(٤) أنفت : الأنفة هي الرفعة.

(٥) السمهري : الرمح الصلب .

القيمة التاريخية والفنية لشعر الحماسة:

واكب شعرُ الحماسة الحروبَ الصليبيةَ منذ بدايتها حتى نهايتها، فقد وصف الشعراء في قصائدِهم احتِلال الصليبيين للبلاد الإسلامية في بداية قدومهم لبلاد الشام، كما وصفوا المعاركَ الهائلةَ التي خاضها قادة المسلمين لاسترجاع بلادهم ومقدَّساتهم، وصوَّروا الحالةَ التي كان عليها المسلمون قبل وبعد هذه الحروب وما تعرَّضوا له من نكبات وانقسامات.

وبهذا يُعَدُّ شعرُ الحماسة وثيقةً تاريخيةً لدارسي الحروب الصليبية، وسِجلًّا حافلًا للأحداث التي مرت بالأمة الإسلامية؛ لأن الشعراء وصفوا معظم تلك الحروب، وتحدثوا عن الأسلحة التي استُخْدمت فيها، والأماكن التي دارتْ فيها، والخطط الحربية ووسائل الدفاع والهجوم، كما أشاروا إلى أسماء الشخصيات التي اشتركت في هذه الحروب. إذًا فشعر الحماسة مَرْجِع تاريخي صوَّر ذلك العصر بكل دِقَّة وجَلَاء.

كما يعد شعر الحماسة في الحروب الصليبية مرحلة مضيئة في تاريخ الأدب العربي، الذي تلطَّخت مسيرته ببعض الشعراء المنحرفين، إذ إنَّ بُرُوزَ روح الجهاد واستخدام المعاني الإسلامية جعلاه متميزًا بين عصور الأدب العربي. وقد تميَّز - أيضًا - عن موضوعات الشعر الأخرى بالجِدِّيَّة والالتزام، فكان لشعراء الحماسة هدفٌ يسعون إليه، وغايةٌ نبيلةٌ يرجون تحقيقها، وفي سبيل ذلك حاولوا الارتفاع بشعرهم لغة وأسلوبًا لتحقيق الغاية التي يريدون؛ لأن شعرَهم كان نتيجة معاناة مرُّوا بها فعبَّروا عنها وخلَّدوها في أشعارهم؛ ولذا لم يكن شعر الحماسة قصرًا على الشعراء المُحْتَرِفين بل تعدَّاهم إلى غيرهم، ولعل هذا ما يفسر كثرة الشعراء، في هذه الفترة وبروز قصائد رائعة لكنها لشعراء مجهولين.

وقد عُرِفتْ أسماء كثيرة لشعراء مجيدين إبَّان تلك الحروب، منهم ابن مُنِير الطرابُلْسي وابن القَيْسَراني المتوفَّيَان سنة ٥٤٨هـ، وطَلائع بن رُزِّيك المتوفَّى سنة ٥٥٦هـ، وأسامة بن مُنْقِذ المتوفَّى سنة ٥٨٤هـ، والعِمَاد الأصفهاني المتوفَّى سنة ٥٩٧هـ، وابن الساعاتي المتوفَّى سنة ٦٠٤هـ، وابن سناء المُلْك المتوفَّى سنة ٦٠٨هـ، وشرف الدين بن عُنَيْن المتوفَّى سنة ٦٣٠هـ، والبُوصِيري المتوفَّى سنة ٦٩٦هـ.

الخصائص الفنية العامة لشعر الحماسة:

برزتْ في شعر الحماسة إبَّان الحروب الصليبية بعض الخصائص والسِّمات، وقبل ذِكْر تلك الخصائص نشير إلى أن شعراء الحماسة استخدموا في شعرهم اللغة الفصحى، مخالفين بذلك كثيرًا من الشعراء في عصرهم الذين غلبت عليهم العامية؛ بسبب البُعْدِ عن موطن العروبة، ونَقْصِ الثقافة، وغَلَبَةِ الأعاجم.

أما أهم الخصائص الفنية العامة لشعر الحماسة فتتمثل فيما يلي:

١ - القوة والجزالة:

في الألفاظ والتراكيب معًا؛ بسبب محاكاة كبار الشعراء العباسيين ومعارضتهم كالمتنبي وأبي تمام.

٢ - صدق العاطفة:

وذلك لأن الشعراء يعبِّرون بإخلاص عما يَخْتَلِجُ في نفوسهم من حبٍّ لهذا الدين وبُغْض للأعداء، ولم تكن تلك العاطفة الجَيَّاشة فَرْدِيَّة فحسْب، بل كانت عامة تعبِّر عن ضمير المسلمين جميعًا وأمانيهم وتطلُّعاتهم في استعادة بلَادهم ومقدَّساتهم.

٣ - سيطرة المحسّنات البديعية:

فقد استخدم شعراء الحماسة بعض ألوان البديع كالجناس والطباق... وكان استخدامهم للبديع يأتي عفويًّا غير متكلَّف، إلا أن حِرْص بعض الشعراء عليه جعلهم يقعون في التكلف الذي يخرج الشعر عن كونه فَيْضًا عاطفيًّا أو تعبيرًا وجدانيًّا.

٤ - الوَحْدة الموضوعية:

ذلك أن الشاعر يتناول غرضًا واحدًا وهو الجهاد، فالقصيدة وإن كان فيها مدح للقادة، ورثاء للشهداء، ووصف للمعارك.. إلا أنها كلَّها ذات هدف واحد، يجمعها موضوع الجهاد والحماسة ضد الأعداء.

نماذج من شعر الحماسة :

١- يقول أحد الشعراء مُسْتَنْهِضًا هِمَمَ المسلمين للدفاع عن الإسلام:

أَحَلَّ الكُفْرُ بِالإِسْلَامِ ضَيْمًا ... يَطُولُ عَلَيْهِ لِلدِّينِ النَّحِيبُ
فَحَقٌّ ضَائِعٌ وحِمًى مُبَاحٌ ... وسَيْفٌ قَاطِعٌ ودَمٌ صَبِيبُ
وكَمْ مِنْ مُسْلِمٍ أَمْسَى سَلِيبًا ... ومُسْلِمَةٍ لَهَا حَرَمٌ سَلِيبُ
وكَمْ مِنْ مَسْجِدٍ جَعَلُوهُ دَيْرًا ... عَلَى مِحْرَابِهِ نُصِبَ الصَّلِيبُ[1]
دَمُ الخِنْزِيرِ فِيهِ لَهُمْ خَلُوقٌ ... وتَحْرِيقُ المَصَاحِفِ فِيهِ طِيبُ[2]
أُمُورٌ لَوْ تَأَمَّلَهُنَّ طِفْلٌ ... لَطَفَّلَ فِي عَوَارِضِهِ المَشِيبُ[3]
أَتُسْبَى المُسْلِمَاتُ بِكُلِّ ثَغْرٍ ... وعَيْشُ المُسْلِمِينَ إِذًا يَطِيبُ
أَمَا لِلَّهِ والإِسْلَامِ جُنْدٌ ... تُدَافِعُ عَنْهُ شُبَّانٌ وشِيبُ
فَقُلْ لِذَوِي البَصَائِرِ حَيْثُ كَانُوا ... أَجِيبُوا اللَّهَ وَيْحَكُمُ أَجِيبُوا

٢- وقال البَهَاء زهير في انتصار الملك الكامل على الإفرنج:

بِكَ اهْتَزَّ عِطْفُ الدِّينِ فِي حُلَلِ النَّصرِ ... ورُدَّتْ عَلَى أَعْقَابِهَا مِلَّةُ الكُفْرِ[4]
صَبَرْتَ إِلَى أَنْ أَنْزَلَ اللَّهُ نَصْرَهُ ... لِذَلِكَ قَدْ أَحْمَدْتَ عَاقِبَةَ الصَّبْرِ
وَلَيْلَةِ نَفْرٍ لِلْعَدُوِّ كَأَنَّهَا ... لِكَثْرَةِ مَنْ أَرْدَيْتَهُ لَيْلَةُ النَّحْرِ
سَدَدْتَ سَبِيلَ البَرِّ والبَحْرِ عَنْهُمُ ... بِسَابِحَةٍ دُهْمٍ وسَابِحَةٍ غُرِّ[5]
أَسَاطِيلُ لَيْسَتْ فِي أَسَاطِيرِ مَنْ مَضَى ... بِكُلِّ غُرَابٍ رَاحَ أَقْنَصَ مِنْ صَقْرِ

---

(١) الدَّيْر: مكان العبادة عند النصارى.
(٢) خَلُوق: نوع من الطيب.
(٣) طفّل: ظهر، والعوارض: جانبا الوجه.
(٤) عطف الدين: عطف كل شيء جانبه.
(٥) السابحة: الجياد. دُهْم: سود. غُر: بيض، وهما من ألوان الخيل.

وَجَيْش كَمِثْلِ اللَّيْلِ هَوْلًا وهَيْبَةً ... وإنْ زَانَهُ مَافِيهِ مِنْ أَنْجُمٍ زُهْرِ
وبَاتَتْ جُنُودُ اللَّهِ فَوْقَ ضَوَامِرٍ ... بأَوْضَاحِهَا تُغْنِي السُّرَاةَ عَنِ الفَجْرِ(١)
فَمازِلْتَ حَتَّى أَيَّدَ اللهُ حِزْبَهُ ... وأشْرَقَ وجْهُ الأَرْضِ جَذْلَانَ بالنَّصْرِ(٢)
فَرَوَّيْتَ مِنْهُمْ ظَامِئَ البِيضِ والقَنَا ... وأشْبَعْتَ مِنْهُمْ جَائِعَ الذِئْبِ والنَّسْرِ(٣)
وجَاءَتْ مُلُوكُ الأرضِ نَحْوَكَ خُضَّعًا ... تُجَرِّرُ أَذْيَالَ المَهَانَةِ والصُّغْرِ

٣- وقال أبو المظفَّر الأَبِيوَرْدي يصف أحوال المسلمين بعد احتلال القدس:

مَزَجْنَا دِمَاءً بالدُّمُوعِ السَّواجِمِ ... فَلَمْ يَبْقَ مِنَّا عُرْضَةٌ للمَرَاجِمِ(٤)
وشَرُّ سِلاحِ المرْءِ دَمْعٌ يُفِيضُهُ ... إذَا الحَرْبُ شَبَّتْ نَارُهَا بالصَّوَارِمِ(٥)
وكَيْفَ تَنَامُ العَيْنُ مِلْءَ جُفُونِهَا ... عَلَى هَفَوَاتٍ أَيْقَظَتْ كُلَّ نَائِمِ
وإخْوَانُكُمْ بالشَّامِ يُضْحِي مَقِيلُهُمْ ... ظُهُورَ المَذَاكِي أو بُطُونَ القَشَاعِمِ(٦)
تَسُومُهُمُ الرُّومُ الهَوَانَ وأنْتُمُ ... تَجُرُّونَ ذَيْلَ الخَفْضِ فِعْلَ المُسَالِمِ(٧)
وَبينَ اخْتِلافِ الطَّعْنِ والضَّرْبِ وقْفَةٌ ... تَظَلُّ لَهَا الوِلْدَانُ شِيبَ القَوَادِمِ(٨)
وتِلْكَ حُرُوبٌ مَنْ يَغِبْ عَنْ غِمَارِهَا ... لِيَسْلَمَ يَقْرَعْ بَعْدَهَا سِنَّ نَادِمِ(٩)

---

(١) ضوامر: الضامر من الخيل والإبل ما انحسر بطنه. الأوضاح: البياض في الجبهة والقوائم. السراة: جمع سارٍ، وهو من يسير بالليل.
(٢) جذلان: فرحان.
(٣) البيض: السيوف. القنا: الرماح.
(٤) السواجم: سَجَمَ الدمع سال بغزارة. المراجم: قبيح الكلام.
(٥) الصوارم: جمع صارم، وهو السيف القاطع.
(٦) المقيل: النوم ظهرًا. المذاكي: الخيل التي أتى عليها سنة أو سنتان. القشاعم: جمع قشعم، وهو النسر، أو الأسد، أو الضبع.
(٧) الهوان: الذل. الخفض: الدعة ورغد العيش.
(٨) القوادم: الشعر في الناصية ومقدمة الرأس.
(٩) غمارها: غمار الحرب احتماؤها وشدتها. وقرع السِنّ: كناية عن شدة الندم.

فَلَيْتَهُمُ إذْ لَـمْ يـذُودُوا حَـمِيَّةً | عَنِ الدِّين ضَنُّوا غَيْرَةً بـالمحَارم[1]
وإن زَهدوا في الأجْرِ إذ حَمِيَ الوَغَى | فَهلَّا أَتَوْهُ رَغْبَـةً فِي الـغَنَائِـم[2]
فَإنْ أَنْتُم لَمْ تَغْضَبُوا بَعْدَ هَـذِهِ | رَمَـيْنَـا إلى أعْـدَائنَا بَـالحَـرَائِـم

٤- وقال العِمَاد الأصفهاني يمدح صلاح الدين:

رَأَيْتُ صَلَاحَ الدِّينِ أفْضَلَ مَنْ غَدَا | وأشْرَف مَنْ أضْحَى وأَكْرَمَ مَنْ أَمْسَى
وقِيلَ لَنَا فِي الأرْضِ سَبْعَةُ أبْحُرٍ | ولَسْنَا نَـرَى إلَّا أَنَامِـلَهُ الخَمْسَـا[3]
سَجِيَّتُهُ الحُسْـنَى وشِيـمَتُهُ الـرِّضَى | وبَطْـشَتُهُ الكُبْرَى وعَـزْمَتُهُ القَعْسَا[4]
جُنُـودُكَ أَمْلَاكُ السَّـماءِ وظَـنُّهُم | أعَادِيـكَ جِنًّا فِي المَعَارِكِ لا إنْسَـا
سَحَبْتَ عَلَى الأُرْدُنِّ رَدْنًا مِنَ القَنَا | رُدَيْنِـيَّةً مُلْـدًا وخَـطِّيَّةً مُـلْسَا[5]
ونِعْمَ مَجَالُ الخَيْلِ حِطِّينُ لَمْ تَكُنْ | مَعَارِكُهَا للجُرْدِ ضِـرْسًا ولادَهْـسَا[6]
كَسَرْتَهُمْ إذ صَـحَّ عَزْمُـكَ فِيـهِمُ | وَنَكَّسْتَهُمْ مِنْ بَعْدِ أعْلَامِهِمْ نَكْـسَا
بِوَاقِعَةٍ رَجَّتْ بِهَـا الأَرْضُ جَيْشَهُمْ | ومَـارَتْ كَمَـا بُسَّـتْ جِبَالُهُمُ بَسَّـا[7]
بُطُونُ ذِئَابِ الأرْضِ صَارَتْ قُبُورَهُمْ | ولَمْ تَرْضَ أرْضٌ أن تَكُونَ لَهُمْ رَمْسَا[8]
ومِنْ قَبْلِ فَتْحِ القُدْسِ كُنْتَ مُقَدَّسًا | فلا عَدِمَتْ أخْلَاقُكَ الطُّهْرَ والقُدْسَا[9]

---

(١) ضنوا: ضنَّ بالشيء: بخل به.

(٢) الوغى: الحرب، أو صوت القتال.

(٣) الأنامل: أطراف الأصابع.

(٤) السجية والشيمة: الخلق والطبع. البطش: الأخذ بالعنف والشدّة. العزمة: الحق الثابت. القعساء: من القعس، وهو الارتفاع والمنَعة.

(٥) الردن: صوت وقع السلاح بعضه على بعض. والقنا والردينية والخطية: الرماح.

(٦) الجرد: جمع أجرد، وهو الفرس قصير الشعر رقيقه.

(٧) مارت: من المور، وهو الاضطراب والجريان على وجه الأرض. بست: فُتِّتت .

(٨) الرمس: القبر.

(٩) مقدسًا: معظمًا. القدسا: كلمة مرادفة للطهر.

المناقشة :

١ - أذكر- بإيجاز- الأسباب التي أدّت إلى قيام الحروب الصليبية.

٢- ما الأثر الذي تركَتْه الحروب الصليبية في شعر الحماسة؟

٣- أعدِّد موضوعات شعر الحماسة بالتفصيل، ثم أتحدَّث عن الرثاء مع التمثيل.

٤- قال ابن القيسراني:

فَسرْ واملأ الدُّنْيا ضِياءً وَبَهْجَةً ... فَبالأُفُقِ الدَّاجي إلَى ذَا السَّنَا فَقْرُ
كأنِّي بِهذَا العَـزْمِ لا فُلَّ حَـدُّهُ ... وَأقْصاهُ بِالأقْصَى وَقَدْ قُضِـيَ الأمْـرُ
وَقَدْ أصْبَحَ البَيْتُ المُقَدَّسُ طَاهِرًا ... وَلَيْس سِوَى جَارِي الدِّمَاءِ لَهُ طُهْرُ

أ- ما غرض الشاعر من هذه الأبيات؟

ب- ما معنى: بهجة، الداجي، السنا؟ وما إعراب كلمة (ذا) في البيت الأول؟

جـ- أوضح الصورة الشعرية في البيت الأول.

د- في البيتين الأول والثاني طباق، واقتباس، وجناس. أحدِّد موضع كلٍّ منها.

هـ- بم شبَّه الشاعر العزم في البيت الثاني؟ وما وجه الشبه؟

و- هل يمكن أن تكون الدماء الجارية مطهِّرة لبيت المقدس؟ أوضِّح ما أقول.

٥- ماذا رسم شعراء الحماسة في وصفهم للمعارك؟ أعود إلى أبيات ابن القيسراني في هذا الموضوع وأبيِّن الصور الواردة فيها .

٦- قال أسامة بن منقذ :

أيْنَ الحَمِـيَّةُ والنَّفْسُ الأَبِيَّةُ إذْ ... سَامُوكَ خُطَّةَ خَسْـفٍ عَـارُهَا يَصِمُ
هَلَّا أنِفْـتَ حَيَـاءً أو مُحَـافَظَةً ... مِنْ فِعْلِ مَا أنْكَـرَتْهُ العُرْبُ والعَـجَمُ
أسْلَمْتَنَا وَسُيُوفُ الهِنْـدِ مُغْمَدَةٌ ... ولَـمْ يُـرَوَّ سِـنَانَ السَّـمْهَرِيِّ دَمُ

أ - مَنِ المخاطب في هذه الأبيات؟ وما المناسبة؟

ب- ما الغرض من الاستفهام في البيت الأول؟

جـ- تأتي (هلَّا) للتحضيض والتأنيب. فمن أيِّهما جاءت هنا؟ أدلِّل على ذلك من اللفظ والسياق.

د - ما معنى: الحميَّة، الأبيَّة، ساموك، أَنِفْت؟ وما الفعل الذي أنْكَرَتْه العرب والعجم؟

هـ- في البيت الثالث كناية. أبيِّنها، ثم أوضِّح الصورة الشعرية في الشطر الثاني منه.

و- سلك الشاعر بعد هذه الأبيات طريقة منطقية في إقناع المخاطب بسوء فِعْلته. أوضِّح هذا القول.

٧- لشعر الحماسة قيمة تاريخية وأدبية عظيمة. أوضِّح هذا القول.

٨- طُبع شعر الحماسة بطابع القوة والجزالة، واتَّسم بالصِّبْغة الدينية الخالصة، وتميَّز بوَحدة الموضوع. فما السبب في كلِّ ذلك؟

٩- أعود إلى النماذج السابقة وأقرؤها بتأنٍّ وتمعُّنٍ، ثم أكتب عليها تعليقًا مناسبًا، بحيث تتناول العاطفة في النموذج الأول، والألفاظ والتراكيب في الثاني، والخيال في الثالث، والأفكار في الرابع.

الأدب في الأندلس

الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية

١- الحياة السياسية:

فتح المسلمون الأندلس[1] على يد طارق بن زياد سنة ٩٢هـ، وظلُّوا يحكمونها أكثر من ثمانية قرون حتَّى زال ملكهم سنة ٨٩٨هـ. وقد مرَّ حكمهم بثلاثة عهود رئيسة : **الأول** : عهد الولاة من قِبَل الدولة الأموية في دمشق (٩٢هـ - ١٣٨هـ) وهو عهد حروب وتأسيس مُلْك جديد في البلاد. **الثاني** : العهد الأموي الذي أسَّسه عبدالرحمن الداخل (١٣٨هـ- ٤٢٢هـ) وينقسم إلى قسمين: عصر الإمارة المستقلة وظلَّ مئة وثمانين عامًا، وعصر الخلافة وظل مئتين وأربعين عامًا، وكان هذا العهد عهد قوة ومَنَعة وازدهار وتطوُّر. **الثالث** : عهد ملوك الطوائف (٤٢٢هـ-٨٩٨هـ) وفيه انقسمت الدولة إلى دُوَيْلات تتنازع ويُفني بعضُها بعضًا حتى انهار الحكم الإسلامي نهائيًّا، وأشهر تلك الدويلات العامريون، والجَهْوَرِيُّون، والموحِّدون، والمرابطون، وبنو الأحمر الذين سقطت الدولة الإسلامية في عصرهم.

٢- الحياة الاجتماعية:

لقد أنشأ المسلمون في الأندلس حضارةً رفيعةً ومَدَنِيَّةً راقية، كانت مِشعلًا أضاء الأندلس وما حولها، فخرجت أوروبا من عصر الظلام والجهل والانحطاط الذي كانت تعيش فيه إلى عصر النور والعلم والتطوُّر، حتى لقد قال أحدُ مؤرخي أوروبا: «إن أوروبا مدينةٌ أعظمَ الدَّيْنِ لعبقرية المسلمين، سواء في اللغة والأدب، أو الفَنِّ والعمارة، أو الحرف والصناعة، أو العلم والفلسفة».

وقد كانت الأندلسُ ذات طبيعةٍ خلَّابة، بل هي من أجْمَلِ بِقَاع الأرض، فهناك السهول الخضراء، والجبال المكْسُوَّة بالأشجار، والأنهار المتدفِّقة، والمياه العذبة، والنسيم العليل.

---

(١) هي ما يُعرف الآن بأسبانيا والبرتغال.

وعندما جاء المسلمون تفاعلوا مع تلك الطبيعة فبنوا القصور الفاخرة والمساجد الفخمة، وشقُّوا التُّرَع والطرقات ورصفوها وأناروها، وزرعوا الحدائق بالثمار والأزهار، وأُقيمت القناطر والجسور فأصبحت الأندلس جنة اللَّه في أرضه.

وقد امتزج العرب والبَرْبَرُ بسكَّان البلاد الأصليين، وتفاعلوا معهم فتكوَّن من ذلك شعب يميل إلى البساطة والتواضع والتسامح، وحبِّ العلم والثقافة، والحرص على النظافة، والتأنق في الملْبس والمسكن، كما امتاز بعُلُوِّ الذوق، ورقَّة الإحْسَاس، ودقَّة الإدراك، وحُسْن التدبير. إلَّا أن المجتمع لم يَخْلُ من عوامل الضعف ومكوِّنات الفساد، فقد كان كثير منهم يميل إلى حياة الترف واللهو والغناء والرقص بسبب ضعف الإيمان، فكان هذا الترف بالإضافة إلى التَفَكُّكِ والانقسام أهمَّ أسباب سقوط الحكم الإسلامي في الأندلس.

٣ - الحياة الفكرية :

انقضى عهد الولاة دون أثر يُذْكر في مجال الفكر؛ لأنه كان عهد فتوحات وتوْطِيد لسلطان الإسلام، وعندما جاء العهد الأموي عهدُ القوة والاستقرار أخذت أنوار العلم والفكر والثقافة تُشِعُّ، مما جعل الأندلس منارًا أضاء أوروبا الغارقةَ في الظلام، وأخذ بيدها إلى حضارتها التي وصلتْ في العصر الحديث.

فقد شجَّع الأندلسيون العلم والعلماء، وأرسلوا بعض طلبة العلم إلى المشرق لِتَلَقِّي العلم والأدب، كما عملوا على اجْتِذاب علماء المشرق إلى الأندلس لنشر العلم، فهاجر إليها نخبة منهم في شتّى صنوف المعرفة، وآثر أولئك العلماءُ البقاءَ في الأندلسِ لِمَا رأوا من التقدير ووسائل الإغراء.

كما عملوا على جَلْب الكتب واستنساخها من المشرق، فضلًا عن تشجيع العلماء والأدباء على التأليف. ولذا انتشرت المكتبات وأقبل الناس على اقتناء الكتب، حتى لم يَكَدْ يخلو بيت منها، وقد أنشأ الحَكَمُ بن عبدالرحمن الناصر مكتبة كبرى في قرطبة تُعَدُّ من مفاخر الأندلس، ومن أشهر المكتبات في العالم الإسلامي، وبلغ عدد الكتب في إحدى المكتبات ست مئة ألف كتاب.

وقد كانت قُرْطُبةُ وغِرْناطةُ وإشْبِيلِيةُ وطُلَيْطِلةُ وسَرَقَسْطةُ وغيرها جامعاتٍ يَنْهَل منها القاصي والدَّاني، العلمَ والفنَّ، وكانت هذه المدن مطْمحَ طلابِ العلم، ومصدرَ الفكر والأدب، والمركزَ الثقافي الذي يؤمُّه الأوروبيون، حيث شهدت جميع العلوم تطورًا مذهلًا في علوم الدين، واللغة، والأدب، والاجتماع، والفلسفة، والرياضيات، والطب، والفلك، والكيمياء، والفيزياء، تركوا في ذلك آثارًا مكتوبة ضاع الكثير منها.

أما الأدب فقد تَأَثَّر بطبيعة البلاد، وبجَوِّ الحرِّيَّة والترف والعلم والتقدُّم والعمران، فانطلق في رحَاب جديدة شكلًا ومضمونًا، بعد أن التزم في المرحلة الأولى تقليد الشعر القديم، وأبدع الأندلسيون الموشحات واغْتَنَى أدبهم بالمعاني الجميلة والصور المعبِّرة، ولم تَرَ أوروبا في عهودها حفاوة بالأدب وأهله كما رأت في الأندلس.

وقد لَمَعَتْ أسماءُ كثير من المفكِّرين والأدباءِ أمثالِ الإمامِ ابن حَزْم المتوفى سنة ٤٥٦هـ، والمؤرِّخ ابن حَيَّان المتوفى سنة ٤٦٩هـ، والأديبِ ابن زيدون المتوفى سنة ٤٦٢هـ، والمفسِّر القرطبي المتوفى سنة ٥١٦هـ، والفيلسوف ابن رُشْد المتوفى سنة ٥٩٤هـ، وغيرهم.

وقُصَارى القول إن الأندلس كانت بحقٍّ مفخرةً للدنيا في العلوم والفنون وأسبابِ المدنية جميعًا، وأنها كانت فردوسًا لم تشهد قبله الأرضُ مثيلًا.

الشعر الأندلسي

تمهيد:

الشعر في الأندلس امتداد للشعر العربي في المشرِق، وقد مَرَّ الشعر الأندلسي بمرحلتين متباينتين وهما: مرحلة التقليد والمحاكاة، ومرحة التجديد والابتكار. فقد انقضى عهد الولاةِ والشعرُ يكاد يكون صورةً لمثيله في المشرق الذي كان من أبرز أعلامه جرير والفرزدق، إذ جاء الشعر مترسِّما خُطَى الشعر العربي الأصيل، ومحافظًا على منهجه، وطارقًا موضوعاته المعروفة وفنونه المختلفة.

فلما جاء العهد الأموي عهد الاستقرار والرَّخاء اختلف الوضع، فقد توافر للشعراء من الأسباب ما حقق للشعر نهضته، بداية من تشجيع الحكام للشعراء وَرَفْع مكانتهم، ومرورًا باختلاط الشعراء مع غيرهم من أهل البلاد الأصليين وذوي الأجناس المختلفة، وانتهاء بالنَّظَر في مفاتن الطبيعة ومظاهر الحضارة، فجاء الشعر جامعًا بين الأصالة ورقَّة الحضارة، وبين التقليد والتجديد.

أغراض الشعر الأندلسي:

خاض الشعراء الأندلسيون معظم الأغراض التي خاضها معاصروهم في المشرق، فمدحوا وهجَوْا ورثَوْا وتغزَّلو وافتخروا على طريقتهم تمامًا، إلا أنهم توسَّعوا في بعض الأغراض وتفوَّقوا فيها على شعراء المشرق كوَصفِ الطبيعة، والغزل، والحنين إلى الوطن، ورثاء المدن والممالك الزائلة.

ولو وازنَّا بين الشعر الأندلسي والشعر المشرقي في المدح والهجاء والرثاء مثلًا لوجدناها تسلك طريقة واحدة، ولوجدنا الدواعي نفسها في كل منها. فكما عزَّز من مكانة المديح في المشرق ضروبُ البطولة والفداء التي أبداها حُكَّام المشرق وقوَّاده مع الروم.عزَّز الفنَّ نفسَه في الأندلس بَلاءُ رجاله وملوكه في عهود قوَّتهم في حرب الفرنجة.

وكذلك كان الحال في الدافع إلى الهجاء إذ عزَّزه في الأندلس ما عزَّزه في المشرق من فِتَنٍ ونكبات وانقسامات، وخاصَّة في عهد ملوك الطوائف . ولقد كان الهجاء أقرب إلى العتاب والتعريض، وطابع النقد الاجتماعي والسياسي .

وكذا كان الرثاء - ولا سيَّما رثاء المدن والمماليك - إذ لا يَبْعُد رثاء الأندلسيين لمثل قرطبة والحمراء عن رثاء المشارقة لبغداد،ونحو ذلك من نكبات الحرب والسياسة التي توالت على أمة الإسلام .

وسنقف هنا وقفة قصيرة عند الأغراض التي توسع فيها الشعراء الأندلسيون وهي: وصف الطبيعة، والغزل، والحنين إلى الوطن، ورثاء المدن .

١ - وصف الطبيعة :

تفوَّق الأندلسيون في ميدان وصف الطبيعة على شعراء المشرق، وأتوا بالروائع الخالدة؛ لما وهبهم الله من طبيعة ساحرة خلاَّبة، فقد كانت الأندلس من أغنى بقاع الدنيا منظرًا وأوفرِها جمالاً، ولذا شُغِف الأندلسيون بها، فأقبلوا يسرحون النظر في خمائلها، ويستمتعون بمفاتنها، فوصفوا الرياض والبساتين، والأشجار والثمار، والأزهار والطيور، ووصفوا السَّحاب والرعد، والبرق وقوس قُزَح، والأنهار والبحار، وقد وصفها ابن خَفَاجة بقوله :

يَا أَهْلَ أَنْدَلُسٍ لِلَّهِ دَرُّكُمُ مَاءٌ وظِلٌّ وأشْجَارٌ وأنْهَارُ

وإلى جانب وصفهم المناظرَ الطبيعية وصفوا مظاهر الحضارة، كالقصور البديعة، والمساجد الفاخرة، والجسور والقناطر، والحدائق، وغيرها من روائع العمران، كقول يحيى بن هُذيل يصف الزهراء :

كأنَّ سَوَارِيهَا شَكَتْ فَتْرَةَ الضَّنَى فَبَاتَتْ هَضِيمَاتِ الحَشَا نُحَّلاً صُفْرَا[1]

كأنَّ النَّخِيلَ البَاسِقَاتِ إلى العُلاَ عَذَارَى حِجَالٍ رَجَّلَتْ لِمَّا شُقْرَا[2]

وقد امتاز وصف الطبيعة في الشعر الأندلسي بتشخيص الأمور المعنوية وتجسيدها وبثِّ الحياة والحركة في الجمادات، كما امتاز بمزج مظاهر الطبيعة بمفاتن الحياة الحضرية المُتْرَفَة .

---

(١) سواريها: أعمدتها . هضيمات: ضامرات . نحلاً: نحيفة .

(٢) حجال: موضع كالقبة يُزيّن للعروس . رجلت: سرَّحت . لمما: اللمم، الشعر المجاوز شحمة الأذن .

٢ - الغـزل :

يكاد شعر الغزل أن يكون أكثر الأغراض رواجًا، وأوسعها انتشارًا عند الأندلسيين. ومَرَدُّ ذلك إلى ما عُرِفوا به من الرقة، والميل إلى اللهو والدعة، وكثرة مجالس الأنس والطرب. وهو عندهم نوعان: ماديٌّ حسِّي يعبّر فيه الشاعر عن الغريزة الجسدية فتمتلئ بالفحش والمجون، وعُذْرِيٌّ عفيف يتسامى فيه الشاعر عن الحسِّ والمادة إلى النقاء والصفاء والطُّهْر. وهذان النوعان يَكْتَظُّ بهما الشعر الأندلسي. ولأوَّلهما دائمًا الغلبة والرجحان، ونشعر كأنما أصبح الناس جميعًا شعراء ينظمون في الغزل والحب وبيان دقائقه ومشاعره. يقول ابن عبد ربه بلغة فيها انسياب وسلاسة، وجمال في التصوير، ورشاقة في التعبير:

يَا لُؤْلُؤًا يَسْبِي العُقُولَ أَنِيقَا ... وَرَشًا بَتَعْذِيبِ القُلُوبِ رَفِيقَا[1]

مَا إنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ ... دُرًّا يَعُودُ مِنَ الحَيَاءِ عَقِيقَا[2]

وَإذَا نَظَرْتَ إلَى مَحَاسِنِ وَجْهِهِ ... أَبْصَرْتَ وَجْهَكَ في سَنَاهُ غَرِيقَا[3]

ويقول جعفر المصحفي وزير الحكم المستنصر:

كَلَّمَتْنِي فَقُلْتُ دُرٌّ سَقِيطٌ ... فَتَأَمَّلْتُ عِقْدَهَا هَلْ تَنَاثَرْ

فَازْدَهَاهَا تَبَسُّمٌ فَأَرَتْنِي ... عِقْدَ دُرٍّ مِنَ التَّبَسُّمِ آخَرْ[4]

ويشيع في شعر الغزل الحوار القصصي، واستخدام التشبيهات المادية بكثرة، والتعبير بعاطفة مرحة منطلقة تصف مشاعر الحب وما فيه من وصل وهجر، كما يمتزج الغزل عند الأندلسيين بوصف الطبيعة.

---

(١) يسبي: يأسر. الرشا: ولد الغزال.

(٢) العقيق: حجر كريم أحمر اللون. والدّر: اللؤلو.

(٣) السنا: ضوء البرق.

(٤) الدر في البيت الأول: الكلام، وفي الثاني: الأسنان.

٣- الحنين إلى الوطن:

ظلَّ الأندلسيون مشدودين إلى وطنهم الأول في المشرق، تَسْتَبْكيهم ذكراه، وتَحِنُّ نفوسهم إلى ربوعه ورُباه، ولطالما عبَّروا بصدق وحرارة عما يخالج نفوسهم من شوق وحنين. ولكنهم لم يلبثوا أن فُتنوا ببلادهم الجديدة الأندلس، فأحبُّوها من أعماقهم، فإذا رحل أحدهم إلى المشرق للحَجِّ أو للعلم لا يلبث أن يعود سريعًا، وهو في غاية الشوق والحنين، ومن أمثلة هذا النوع من الشعر قول عبدالرحمن الداخل يحن إلى المشرق وأهله في الشام:

أَيُّهَا الرَّاكِبُ المُيَمِّمُ أَرْضِي	أَقْرِ مِنْ بَعْضِيَ السَّلامَ لِبَعْضِي[1]
إِنَّ جِسْمِي كَمَا تَرَاهُ بِأَرْضٍ	وفُؤَادِي ومَالِكِيهِ بِأَرْضِ
قُدِّرَ البَيْنُ بَيْنَنَا فَافْتَرَقْنَا	وطَوَى البَيْنُ عَنْ جُفُونِيَ غَمْضِي
قَدْ قَضَى اللَّهُ بالبِعَادِ عَلَيْنَا	فَعَسَى باقْتِرَابِنَا سَوْفَ يَقْضِي

وأهمُّ المعاني التي يدور حولها شعر الحنين هي الشوق إلى الأوطان، والتجارب الذاتية في ديار الغربة، وذِكْر أيام وعهود السعادة في تلك الأوطان.

٤- رثاء المدن والممالك:

النكبات التي حَلَّت بالمسلمين في الأندلس، والصِّراع المرير بينهم وبين الأعداء، وما انتهت إليه مدنهم وحضارتهم من دمار شامل وسقوط مُريع في أيدي الأعداء؛ كل ذلك أدَّى إلى أن يتفاعل الشعراء مع أحداث بلدهم، وأن يبدعوا فيما عُرِف باسم (رثاء المدن).

(١) الميمم: المتجه. أَقْرِ: أبلغ.

فهذا ابن شُهيد يقول في رثاء قرطبة:

فَلِمِثْلِ قُرْطُبَةٍ يَقِلُّ بُكَاءُ مَنْ ❊ يَبْكِي بِعَيْنٍ دَمْعُهَا مُتَفَجِّرُ
عَهْدِي بِهَا والشَّمْلُ فِيهَا جَامِعٌ ❊ مِنْ أَهْلِهَا والعَيْشُ فِيْهَا أَخْضَرُ
يَا جَنَّةً عَصَفَتْ بِهَا وبِأَهْلِهَا ❊ رِيحُ النَّوَى فَتَدَمَّرَتْ وتَدَمَّرُوا[1]
آسَى عَلَيْكِ مِنَ المَمَاتِ وحُقَّ لِي ❊ إِذْ لَمْ نَزَلْ بِكِ في حَيَاتِكِ نَفْخَرُ[2]

وقد كانت بدايات هذا النوع من الشعر تتمثَّل في رثاء المدن، ثم رثاء الممالك، ثم رثاء الأندلس كلِّها بعد أن سقطت أو أوشكت على السقوط، ومن الأخير قصيدة أبي البقاء الرُّنْدِي المشهورة التي يقول فيها:

لِكُلِّ شَيْءٍ إذا مَاتَمَّ نُقْصَانُ ❊ فَلَا يُغَرَّ بِطِيبِ العَيْشِ إنْسَانُ
هِيَ الأمُورُ كَمَا شَاهَدْتَهَا دُوَلٌ ❊ مَنْ سَرَّه زَمَنٌ سَاءَتْه أَزْمَانُ[3]

والقصيدة في غاية الروعة والتأثير، ولروعتها أخذت الأجيال التالية تزيد عليها أبياتًا تَنْدُبُ بها البلاد بعد سقوطها.

ويمتاز هذا النوع من الشعر بصِدْق العاطفة، وعُمْق الشعور بالأسى والحزن والمرارة، والتصوير الواقعي لحال المسلمين، وما صاروا إليه من تناحر واقتتال وتحالُف مع الأعداء ضد بعضهم، كما يمتاز بالحكمة الصَّادقةِ النابعةِ من التجارب المريرة، والدراسةِ الواقعيةِ لأسباب الهزائم المتمثِّلة في الميل إلى الترف واللهو والتعاون مع الأعداء.

---

(١) النوى: الفراق.

(٢) آسى: من الأسى وهو الحزن والحسرة.

(٣) دول: جمع دَوْلة، وهي انقلاب الزمان من حال إلى حال.

الخصائص الفنية للشعر الأندلسي:

لقد أُعْجِب الأندلسيون بشعراء المشرق سواء أكانوا جاهليين أم إسلاميين أم عباسيين، إلا أن تأثُّرَهم بالأخيرين كان أكبر، ولذا تشابهت خصائص الشعر في الأندلس والمشرق العربي؛ لأن الشعراء الأندلسيين كانوا في غالب أمرهم مقلِّدين، ويبدو ذلك واضحًا في ألقاب الشعراء، حيث لقَّبوا ابن هانئ بـ«متنبي الأندلس» وابن زيدون بـ«بحتري الأندلس» وابن خفاجة بـ«صَنَوْبريِّ الأندلس»... ولكن هذا التقليد لم يكن ليطغى على شخصيتهم، ويمنعهم من التميُّز بميزات تخصُّهم لعواملَ كثيرةٍ أهمها البيئة الأندلسية التي طبعت الشعر بطابع خاص، وجعلته يرتبط بالواقع ويعبر عن ذاتِيَّة صاحبه.

وقد امتاز الشعر الأندلسي في مُجْمَلِه بالميزات التالية:

١ - الألفاظ والتراكيب : جاءت ألفاظ الشعر الأندلسي سهلة رقيقة عذبة، خالية من الغرابة والخشونة[١]، أما التراكيب فجاءت سلسة محكمة الصياغة بعيدة عن التعقيد، لا يظهر فيها أثر لغموض أو التواء أو خلل؛ لأنهم لم يُحمِّلوا التراكيب ما لا تطيق من المعاني المزدَحِمة، فجاء أكثر شعرهم جاريًا مع الطبع، من غير تكلُّف أو تصنُّع.

٢ - المعاني والأفكار : تتميز معاني الشعر الأندلسي بأنها واضحة جليَّة، بعيدة عن تعمُّق الفلاسفة وتدقيق الحكماء؛ لأنه لم يُقدَّر للأندلسيين أن يشتغلوا بعلوم الفلسفة والمنطق، لعدم تأثرهم بالترجمة والنقل من الثقافات الأخرى كما كانت الحال في المشرق. كما تتميز معاني الشعر الأندلسي بالخُلُوِّ من المبالغة في طلب المعاني. وأخيرًا فقد وُجد في الشعر الأندلسي كثير من المعاني المبتكرة، والأفكار المخترعة، التي لم يكن للشعر العربي عهد بها.

---

(١) يُستثنى من ذلك بعض الشعراء كابنَ هانئ لثقافته اللغوية وحرصه على الغريب تأثُّرًا بالمتنبي.

٣ - الصُّور والأخيلة : أَبْدَع الأندلسيون في هذا الجانب أيّما إبداع، وكان لهم فيه الظهور والتفوُّق على غيرهم، فقد برعوا في التصوير، وأَغْرَقُوا في التخيُّل وبلغوا فيهما شأوًا بعيدًا، حيث تعاطف الشعراء مع الطبيعة الخلّابة، وتجاوبوا مع الحضارة المترفة، وانعكس ذلك على شعرهم فأتوا بالتشبيهات الرائعة، والاستعارات الدقيقة، والتشخيص المُمْتع، الذي يبثُّ الحركة والحياة في الجمادات وغيرها فإذا الأشجار تتكلَّم، والورود تبتسم، والأزهار تخجل، والبحار تَزْأَرُ، وإذا المطر يَتَّخِذُ الروض صديقًا وصاحبًا، والشمس تَمُدُّ ذِرَاعيها إلى الأرض، إلى غير ذلك من الصور الجميلة والأخيلة اللطيفة، التي ستظهر واضحة جليَّة فيما سيأتي من نماذج.

٤ - الأوزان والقوافي : أكثر الأندلسيون من نظم الشعر في البحور الخفيفة القصيرة، لتناسُبها مع حالة الترف واللهو وحبِّ الغناء الذي انتشر في مجتمعهم، فجاؤوا بمقطوعات رشيقة أنيقة، حتى ضاقت أوزان العَرُوض عمَّا تَقْتَضِيه رِقَّة الحضارة وانتشار الغناء فاستحدثوا الموشحات، التي سوف نتحدث عنها حديثًا مفصلًا.

المنـاقشــة :

١ - أتحدَّث - بإيجاز - عن أبرز مظاهر الحياة الاجتماعية في الأندلس.

٢ - تأثَّر الأدب الأندلسي بطبيعة البلاد وبحركة الفكر. أوضح هذا القول.

٣ - ما المراحل التي مرَّ بها الشعر الأندلسي؟ وما السِّماتُ العامة التي تميز بها في كل منها؟

٤ - أوَازِنُ بين الشعر الأندلسي والشِّعر المشرقي في كلٍّ من المدح والهجاء والرثاء.

٥ - قال يحيى بن هذيل:

كأن سواريها شكت فترة الضنى … فباتت هضيمات الحشا نُحَّلا صفرا
كأن النخيل الباسقات إلى العلا … عذارى حجال رجَّلت لِمَما شقرا

أ- من أي أنواع الوصف الأندلسي هذان البيتان؟ وماذا يصف فيهما؟

ب- ما معنى: الضنى، الحشا، الباسقات؟ وما مفرد كل من: نحَّلًا، لممًا، شقرا؟

جـ- أشرحُ الصورتين الشعريتين في كل من البيتين.

د- أضبِطُ أواخر الكلمات في البيتين.

٦- ما سبب وجود شعر الحنين إلى الوطن في الشعر الأندلسي؟ وما المعاني التي يدور حولها؟

٧- ما سبب رواج شعر الغزل في الأندلس؟ وبم امتاز؟ آتي بمثال يوضح ما أقول.

٨- قال ابن شُهَيد في رثاء قرطبة:

فَلِمِثْلِ قُرْطُبَةٍ يَقِلُّ بُكَاءُ مَنْ ... يَبْكِي بِعَيْنٍ دَمْعُهَا مُتَفَجِّرُ

عَهْدِي بِهَا والشَّمْلُ فِيهَا جَامِعٌ ... مِنْ أَهْلِهَا وَالعَيْشُ فِيْهَا أَخْضَرُ

أ- في البيت الأول مبالغة حسنة. أوضِّحها، مع بيان المراد بها.

ب- أوضِّح الصورة الشعرية في قوله : دمعُها متفجِّر.

جـ- يشير الشاعر في البيت الثاني إلى أنواع الحياة في قرطبة قبل سقوطها. أوضح هذا القول.

د- بم امتاز رثاء المدن عند الأندلسيين؟

٩ - كان الشعراء الأندلسيون في غالب أمرهم مقلِّدين للشعر المشرقي، إلا أن هذا التقليد لم يَمْنَعْهم من التميُّز بميزات تخصُّهم. أبسُطُ الحديث في هذا القول.

الموَشَّحَـــــات

ذكرنا في حديثنا عن خصائص الشعر الأندلسي أن الشعراء الأندلسيين جدَّدوا في أوزان الشعر وقوافيه حتى اخترعوا الموشحات، وبرعوا فيها، وتميزوا بها عن غيرهم، وهي تجديد في شكل الشعر لافي مضمونه.

تعريف الموشحات :

الموشحات: جمع مُوشَّح، وقد عرَّفَه ابن سناء الملك بقوله: «الموشَّح كلام مَنْظوم على وزن مخصوص بقوافٍ مختلِفة»، وجاء في أحد المعاجم الأدبية الحديثة أن الموشح: «شكل خارجي تتَّخذه القصيدة العربية، يتكون من أجزاء معينة، لا يتحكم فيه وزن واحد أو قافية معينة، ويختلف باختلاف الشعراء».

والموشح مأخوذ من التوشيح وهو التنميق والتجميل، ولعلهم شبهوه بوشَاح المرأة وهو خَيْطَان من لؤلؤ وجَوْهر منظومان، يُخَالف بينهما ويُعْطَف أحدهما على الآخر، ليكوِّنا عِقْدًا تتوشَّح به المرأة، والجامع بينهما هو التشابه في التجميل، فالوشاح يُجَمَّل بما يُرَصَّع عليه من الجواهر، والموشح يُجَمَّل بالتنويع بين أقفاله وأدواره في الوزن والقافية.

نشأة الموشحات :

نشأت الموشحات في الأندلس، في أواخر القرن الثالث الهجري، على يد مُقَدَّم بن مُعَافَى القَبْري أحد شعراء عبداللَّه بن محمد بن الحكم (حكَمَ من ٢٥٧ إلى ٣٠٠هـ)، وسلكتْ بعد ذلك سبيل التطور على يد يوسُف بن هارونَ الرمادي الشاعر القرطبي (المتوفى سنة ٤٠٣هـ)، ثم جاء بعده عُبَادَة ابن ماءِ السَّماء (المتوفى سنة ٤١٩هـ) وعلى يديه اكتملت صورة الموشحات، وصارت فنًّا قائمًا على أصوله، ومستكملًا لبنائه ونظامه، حيث ألف فيها كتابًا سمَّاه: (دار الطِّرَاز في عَمَل الموشحات).

والموشحات اختراع أندلسي خالص، ولا صحَّةَ لما يُقَال من أن ابن المَعتز العباسي هو مخترعها، وإنما ذلك محاولة لسَلْبِ الأندلسيين هذا الاختراع الذي أكد المؤرخون سَبْقَهم

إليه، حتى لقد قال ابن سناء الملك: «وبعدُ: فإن الموشحاتِ مما ترك الأولُ للآخرِ، وسبق بها المتأخرُ المتقدِّمَ...».

ويُعدُّ يحيى بن بقي وابن عبادة القزَّاز وأبو بكر بن زُهْر أبرز شعراء الموشحات.

أجزاء الموشح :

تتعدّد أجزاء الموشح التي يتركَّب منها، ولكلِّ جزء من هذه الأجزاء اسم يميزه عن غيره، وهذه الأجزاء هي:

١ - **المَطْلَع :** وهو ما يُفْتَتَحُ به الموشح، ويتألَّف من قسمين غالبًا، أو أربعة أحيانًا[١].

٢ - **الدَّوْر :** وهو الجزء الذي يأتي بعد المطلع وقبل القفل، يتألف من ثلاثة أقسام فأكثر، ويجب في كلِّ دور أن يكون مُتَّفِقًا مع بقية الأدوار في الوزن وعدد الأقسام دون القافية.

٣ - **القُفْل :** وهو الجزء الذي يأتي بعد الدور، ويَلْزم أن يَتَّفق كل قفل مع المطلع، ومع بقية الأقفال، ومع الخرجة في الوزن والقافية وعدد الأقسام.

٤ - **الخَرْجَة :** وهي آخر قفل في الموشح.

٥ - **البَيْت :** وهو في الموشح غيره في القصيدة التقليدية، فالبيت في القصيدة يتركَّبُ من جزأين (شطرين) : صدرالبيت وعجزه، أما في الموشح فيتركَّب من جزأين وهما : الدور والقفل الذي يليه، فكل دور مع القفل الذي يليه يطلق عليهما اسم (بيت)، وهكذا إلى آخر الموشح.

٦ - **الغُصْن :** وهو اسم اصطلاحي لكل قسم من أقسام المطلع، أو الأقفال، أو الخرجة، ويجب أن تتساوى جميع هذه الأجزاء الثلاثة في عدد الأغصان.

٧ - **السِّمْط :** هو اسم اصطلاحي لكل قسم من أقسام الدور، ويجب أن تتساوى جميع الأدوار في عدد الأسماط.

---

(١) قد يُتْرك المطلع ويُبدأ بالدور مباشرة فُيسمى الموشح حينئذ (أقْرع)، فإذا بدئ الموشح بالمطلع- وهو الغالب- سُمي (تامًّا).

وفيما يلي إحدى الموشحات للاستعانة بها على توضيح مدلولات هذه المصطلحات التي أطلقها الوَشَّاحون على الأجزاء التي يتركَّبُ منها الموشح عادة.

يقول الوزير أبو بكر بن عيسى الدَّاني أحد شعراء بني عبَّاد في القرن الخامس، يمزج المدح بالغزل:

	غصن	غصن
المطلع	في نَرْجِسِ الأَحْدَاقْ	وسَوْسَنِ الأَجْيَادْ[١]
	نَبْتُ الهَوَى مَغْرُوسْ	بَيْنَ القَنَا المَيَّادْ

* * *

	سمط	سمط	سمط	سمط
البيت – الدور	وفي نَقَا الكَافُورْ	والمَنْدَلِ الرَّطْبِ	والهَوْدَجِ المَزْرُورْ	بالوَشْيِ والعَصْبِ[٢]
	قُضْبٌ مِنَ البَلُّورْ	حُمِينَ بِالْقُضْبِ	نَادَى بَهَا المَهْجُورْ	مِنْ شِدَّةِ الحُبِّ[٣]

	غصن	غصن
البيت – القفل	أَذَابَتِ الأَشْوَاقْ	رُوحِي عَلَى الأَجْسَادْ
	أَعَارَهَا الطَّاوُوسْ	مِنْ رِيشِهَا أَبْرَادْ[٤]

---

(١) النرجس والسوسن: نوعان من الزهور. الأحداق: سواد العين.

(٢) الكافور: نبت طيب الرائحة. المندل: عود الطيب. الهودج: مركب للنساء. المزرور: المُزيَّن. الوشي: نقش الثوب. العصب: ثياب مخططة.

(٣) قضب الأولى: جمع قضيب، وهو الغصن، والثانية: جمع قضيب، وهو السيف الدقيق. البلور: نوع من الجواهر يتكون من زجاج شفاف (الكرستال).

(٤) أبراد: جمع بُرْد، وهو الثوب المخطط.

كَوَاعِــــبٌ أَتْرَابْ تَشَابَهَتْ قَـــدًّا عَضَّتْ عَلَى العُنَّابْ بِالبَرَدِ الأَنْدَى[1]

دور

أَوْصَتْ بِيَ الأَوْصَابْ وَأَغْرَتِ الوَجْدَا وأَكْثَرُ الأَحْبَابْ أَعْدَى مِنَ الأَعْدَا[2]

البيت

تَفْـتَرُّ عَنْ أَغْـلَاقْ لَآلِـئٌ أَفْـرَادْ[3]

قفل

فِيهِ اللَّمَى مَحْرُوسْ بِأَلْسُنِ الأَغْمَادْ[4]

* * *

مِنْ جَوْهَرِ الذِّكْرى أَعْطَى نُحُورَ الحُورْ وَقَـلَّـدَ الـدُّرَّا سُلالَـةَ المَنْصُـورْ

دور

جَـاوِرْ بِهِ البَـحْـرَا واخْرِقْ حِجَابَ النُّورْ وَقُـلْ لَـهُ شِـعْرَا بِفَضْـلِكَ المَشْـهُورْ

البيت

جَمَعْتَ فِي الآفَاقْ تَنَـافُرَ الأَضْـدَادْ

قفل

فَأَنْتَ لَيْثُ الخِيسْ وأَنْتَ بَـدْرُ النَّـادْ[5]

* * *

خَرَجْـتُ مُحْـتَالَا أَبْغِي سَنَـا الـرِّزْقِ أَقْـطَـعُ أَمْيَـالا غَـرْبًـا إلى شَـرْقِ

دور

مُـــؤَمِّـــلًا حَـالَا يَكُـونُ مِنْ وفْقِي فَقَـالَ مَـنْ قَالا وَفَـاهَ بِالصِّـدْقِ[6]

البيت

دَعْ قَطْعَكَ الآفَاقْ يَا أَيُّهَـا المُـرْتَادْ

خرجة

وَاقْصِدْ إِلَى بَادِيسْ خَيْـرِ بَنِي عَبَّـادْ

---

(١) كواعب: جمع كاعب، وهي من برز نهداها. أتراب: في سنٍّ واحدة. العنَّاب: ثمر أحمر حلو كثيرًا ما تشبه به أطراف الأصابع. البرد: يقصد به الأسنان.

(٢) الأوصاب: جمع وصب، وهو المرض. الوجد: الحب.

(٣) تفتر: تبتسم. أغلاق لآلئ أفراد: يقصد الأسنان المفرقة.

(٤) اللمى: سمرة مستحبة في الشفاه. الأغماد: جمع غمد، وقد استعاره للفم.

(٥) الخيس: موضع الأسد وعرينه.

(٦) فاه: نطق.

موضوعات الموشحات:

كانت الموشحاتُ في أول الأمر وثيقة الصِّلة بالغناء، وكانت الأغراض التي تُنَاسبها هي الغزل ووصف الطبيعة، وفيها قِيلَتْ أكثر الموشحات وأشهرها، ومالبثتْ أن اتَّسعت لجميع الأغراض، فقد نَظَم الوشَّاحون في المديح، والهجاء، وإزجاء التهاني في المناسبات، ثم رثاء أبطال المسلمين في حروبهم مع الفرنجة.

ومن الموشحات النادرة التي بُنِيَتْ على وصف الطبيعة فقط- ولعله مجتزأ من موشح- قول أبي الحسن علي بن مُهَلْهل الجلياني:

النَّهْرُ سَلَّ حُسَامَا ... عَلى قُدُودِ الغُصُونِ

وِللنَّسِيم مَجَالُ
والرَّوضُ فِيهِ اخْتِيَالُ
مُدَّتْ عَلَيْهِ ظِلَالُ

والزَّهرُ شَقَّ كِمَامَا ... وَجْدًا بِتِلْكَ اللُّحُونِ[١]

أَمَاتَرَى الطَّيْرَ صَاحَا
والصُّبْحَ في الأُفْقِ لَاحَا
والزَّهَرَ فِي الرَّوْض فَاحَا

والبَرْقَ سَاقَ الغَمَامَا ... تَبْكِي بِدَمْعٍ هَتُونِ[٢]

---

(١) الكمام والأكمام: أغلفة براعم الزهر. وجدًا: شوقًا.

(٢) الغمَام: السحاب. هتون: هتن المطر: نزل بغزارة.

أوزان الموشحات :

كانت الموشحات ثورة على الأوزان التقليدية للشعر العربي، وعلى قوافيه، وقد لاحظ ابن سناء الملك أن الموشحات تنقسم إلى قسمين:

١- ماجاء على أوزان أشعار العرب.

٢- ماجاء على غير أوزانهم المألوفة.

وقل لجأ الوشّاحون إلى التنويع في أوزان الموشحة الواحدة، مع مراعاة أنَّ الأوزان التي يختارونها غالبًا ماتكون من البحور الرشيقة الخفيفة، كالموشحتين السابقتين، وقلَّ أن يستخدموا بحور الطويل والكامل والوافر وغيرها من البحور الشائعة، التي تعتمد على طول النَّفَسِ وكَثْرَةِ التفعيلات.

المناقشة :

١- ما تعريف الموشح؟ وما سببُ تسميته بهذا الاسم؟

٢- أتحدَّثُ- بالتفصيل- عن نشأة الموشحات.

٣- البيت في الموشح يختلف عنه في القصيدة التقليدية. أوضِّحُ هذا الكلام مع التمثيل لكلٍّ منهما.

٤-ما موضوع موشح عيسى الدَّاني؟ وما السمةُ البارزة التي تظهر بوضوح في الألفاظ المستخدَمة فيه؟

٥-ما الموضوعات التي تناولتها الموشحات في بداية الأمر؟ ولماذا؟ وهل اقتصرتْ- فيما بعد- على تلك الأغراض؟ أوضِّح إجابتي.

٦- أَنْقُلُ موشح علي بن مهلهل الجلياني في كراسة الإجابة، مع توضيح الأجزاء التي يتكوَّن منها، ثم أشرحه شرحًا أدبيًّا يوضح معانيه ويبرز جماله الفني.

نماذج من الشعر الأندلسي

١ - ابن سفر المرِيني يصف الأندلس*

النص :

١- فـي أرْضِ أنْـدَلُسٍ تَـلْتَـذُّ نَـعْمَـاءُ ولَا يُفَـارِقُ فِـيـهَا الـقَـلْبَ سَـرَّاءُ
٢- أنْهَـارُهَا فِضَّـةٌ، والمِسْـكُ تُـرْبَتُـها والخَـزُّ رَوْضَتُهَـا، والـدُّرُّ حَـصْبَـاءُ
٣- ولِلْهَـوَاءِ بِـهَـا لُـطْفٌ يَـرِقُّ بِـهِ مَنْ لا يَـرِقُّ، وتَبْـدُو مِـنْـهُ أهْـوَاءُ
٤- ليسَ النَّسِيمُ الذي يَهْفُو بها سَحَرًا ولا انْـتِـشَارُ لآلـيْ الـطَّلِّ أنْـدَاءُ
٥- وإنَّما أرَجُ النَّـدِّ اسْـتَثَارَ بِـهَـا في مَاءِ وَرْدٍ فَطَابَتْ منهُ أرْجَـاءُ
٦- وأيْـنَ يَبْـلُغُ مِـنْـهَا مَا أُصَنِّفُهُ؟ وكَيْفَ يَحْوِي الـذي حَازَتْهُ إحْصَـاءُ؟
٧- قَدْ مُيِّزَتْ من جِهَاتِ الأرْضِ حِينَ بَدَتْ فَـرِيـدةً وتَـوَلَّى مَيْـزَهـا المَـاءُ
٨- دَارَتْ عَـلَيْـهَا نِطَـاقًا أبْحُرٌ خَفَقَتْ وَجْـدًا بِهَـا إذ تَبَـدَّتْ وهْيَ حَسْناءُ
٩- لِذَاكَ يَبْسُـمُ فِيهَا الزَّهْـرُ مِنْ طَرَبٍ والـطَّيْرُ يَشْـدُو ولِلأغْصَـانِ إصْغَـاءُ
١٠- فِيهَـا خَـلَعْتُ عِـذَارِي مَا بهَا عِوَضٌ فَهْيَ الرياضُ، وكُـلُّ الأرضِ صَـحْـرَاءُ

---

* نفح الطيب ١/ ١٩٠-٤.

(١) نعماء : نعمة. سراء : مسرَّة.

(٢) الخز : كساء يشبه الحرير. الحصباء: الحصى.

(٤) الطل: قطرات الماء التي تظهر على أوراق الأشجار صباحًا.

(٥) الأرج : توهُّج ريح الطيب، والند: نوع من الطيب، أو هو العنبر.

(٨) نطاقًا: إحاطة. وجدًا : حبًّا.

(١٠) خلعت عذاري : يقوله المنهمك في الغيّ.

التعريف بالشاعر والمناسبة:

ابن سَفَر المرِّيني هو أبو الحسن محمد بن سفر، من شعراء عصر الموحِّدين في المِئَة السادسة، وهو شاعر المَريَّة (بشرقي الأندلس)، حيث نشأ وترعرع وأكثر شعره في وصف الطبيعة، قال عنه المَقري التلمساني في كتابه «نَفْح الطِّيب»: «أحد الشعراء المتأخرين عصرًا المتقدمين قدرًا، والإحسان له عادة».

والنصُّ الذي أمامنا هو إحدى روائعه في وصف مغاني الأندلس، وما تتميَّز به من جمال أخَّاذ، وطبيعة ساحرة، دفعته إلى التعبير عن ذلك الشعور المبهج الذي يختلج في صدره بقصيدة لا تقلُّ جمالًا عما وصف.

الشــرح:

إن بلادًا كالأندلس رياض وأنهار، وجداول وأشجار، وبساتين وظلال، وهواء لطيف، وخصب ونَماء، لَمِمَّا يملك على الشاعر لُبَّه، ويُذْكي فكرَه، ويرقِّق شعورَه، فتراه يغدو أو يروح شاديًا، يتغنَّى بحبِّ تلك البلاد وطبيعتها الساحرة، ومناظرها الخلابة.

وابن سفر لا يَبْعُد عما قلناه، وهو هنا يصف الأندلس بأنها أرض تطيب فيها النِّعَم، ويدوم السرور؛ لِمَ لا؟ وهي ذات أنهار كالفضة، وتربة كالمسك، وروضة كالحرير، وحصًى كالدُّر، وهواء عليل يرق بفضله جافي الطبع، الغليظ الخشن. ومن إحساسه المرهف بهذا الجمال، لا يرى النسيمَ الذي يهبُّ فيها هواءً، وليست قطرات الطل ندى، وإنما هو طيب توهَّجت رائحته واختلطت بعبير ماء الورد فتعطرت منه الأجواء.

ويتوقَّف الشاعر، وكأنه يحسُّ بعَجْز بيانه، وقصور عباراته، عن وصف محاسن الأندلس فيقول: إن ما أصنِّفُهُ لا يعطي الصورة الكاملة عنها؛ لأنها ذات مزايا لا أستطيع إحصاءها، وأهم تلك المزايا موقعها الفريد، حيث تحيط بها البحار وهي تخفق حبًّا بتلك الحسناء، وبسبب هذا الجمال الفاتن أصبح الزهر يبتسم فيها طربًا، والطير يشدو فرحًا، والأغصان تصغي إعجابًا. ولا عجب إن استقرَرْتُ فيها، فهي وحدها الرياض، وماعداها من بقاع الأرض صحارَى قاحلة، لا يطيب فيها عيش، ولا يهنأ فيها بال.

التعليق:

إن المريني شاعر وصَّاف، وهو هنا يصف الأندلس، وأهم متطلَّبات الوصف قوة الملاحظة ودقَّة التصوير، وقد حاول الشاعر أن يلجأ إليهما، إلا أنه تفاجأ بأن ما يريد وصفه ليس بستانًا أو حديقة وإنما هو بلد مترامي الأطراف، لا تستطيع العبارات تصوير جماله، وإبراز محاسنه، ولذا تحوّل إلى الأوصاف العامة كوصف موقعها، ومائها، وتربتها، وهوائها... ولا نستطيع - مع ذلك - إلا أن نقول: إنه جعلنا نحسُّ وكأننا أمام - بل وسط - تلك البلاد.

وقد تعاطف الشاعر مع الطبيعة، وبثَّ فيها مشاعره، ومزج وصفه إيَّاها بمفاتن الحياة الحضرية المترفة، فجاءت قصيدة متَّسمة بأبرز خصائص الشعر الأندلسي من عذوبة اللفظ، وروعة التصوير، وحسن الجرْس، وجمال الصياغة. وننظر إلى قوله:

أَنْهَارُهَا فِضَّةٌ، والمِسْكُ تُرْبَتُها ... والخَزُّ رَوْضَتُهَا، والدُّرُّ حَصْبَاءُ

فنجدُ رشاقة في الألفاظ، حيث الألفاظ الحضرية المستمدة من مادة الترف والثراء: (فضة، المسك، الخز، الدر)، كما نجد روعة في التصوير، حيث اشتمل على أربع صور جميلة، ونجد أيضًا حسن الجرس، وجمال الصياغة، حيث الجمل القصيرة المتسلسلة، والمتوازنة بشكل بديع.

ولعلَّنا نتوقَّف عند ذلك التصوير المؤثر في البيت الثامن حيث صوَّر البحار بصورة المُحبِّ المُتَيَّم الذي يخفق قلبه بحب معشوقته وهي هنا الأندلس. وأخيرًا ننظر إلى التشخيص الرائع في قوله:

لِذَاكَ يَبْسُمُ فِيهَا الزَّهْرُ مِنْ طَرَبٍ ... والطَّيْرُ يَشْدُو ولِلأَغْصَانِ إصْغَاءُ

فهو تشخيص يعطي صورة متكاملة عن ذلك الجو البديع، الذي يفيض بالبهجة والسرور، فالزهر يبتسم، والطير يشدو، والأغصان تصغي، إلى غير ذلك مما يبعث في النفس المرح والسعادة.

إن هذه القصيدة إحدى الروائع التي خلَّفها لنا أحد الشعراء الأندلسيين، الذين وصفوا طبيعتهم، وشخَّصوا مظاهرها، واستنطقوا مختلف مشاهدها، وتعاطفوا معها تعاطفًا جعلهم لا يَنْسون ذكرها في مختلِف أغراض شعرهم.

المناقشة:

١ – تحت أي غرض من أغراض الشعر تندرج هذه الأبيات؟ ولماذا تفوَّق الأندلسيون فيه؟

٢ – ما لون عاطفة الشاعر في هذه الأبيات؟ وهل هو صادق فيما يصوِّر؟

٣ – في أحد الأبيات أربع صور خيالية جميلة. أذكر البيت وأوضح الصور.

٤ – هل استطاع الشاعر تصوير كلِّ ما وقعت عليه عينه أم لا؟ ولماذا؟ (أجيب من البيت السادس).

٥ – ما النسيم؟ وما الندى في نظر الشاعر؟ ولِمَ صوَّرهما بتلك الصورة؟

٦ – إذا قلنا: إن في البيت التاسع تشخيصًا؛ فماذا نعني بالتشخيص؟ وأين موضعه في هذا البيت؟

٧ – في أحد أبيات القصيدة يُجْمِل الشاعر حالة العيش في الأندلس، وفي بيت آخر يُبَين أنه لن يرضى بها بديلًا. أحدِّد البيتين وأشرحهما معًا بأسلوب أدبي.

٨ – أتحدَّث عن ألفاظ الشاعر في هذه الأبيات، مع التمثيل.

٢ - ابن حَمْدِيس الصقلي يصف بِرْكة

النص :

١ - وَضَرَاغِمٍ سَكَنَتْ عَرِينَ رِيَاسَةٍ ... تَرَكَتْ خَرِيرَ المَاءِ فِيهِ زَئِيرَا
٢ - فَكَأَنَّمَا غَشَّى النُّضَارُ جُسُومَهَا ... وأَذَابَ فِي أَفْوَاهِهَا البَلُّورَا
٣ - أُسْدٌ كَأَنَّ سُكُونَهَا مُتَحَرِّكٌ ... في النَّفْسِ لَو وَجَدتْ هُنَاكَ مُثِيرَا
٤ - وتَذَكَّرتْ فتكَاتِهَا فَكَأَنَّما ... أَقْعَتْ عَلَى أدْبارِهَا لِتَثُورَا
٥ - وتَخَالُها والشَّمْسُ تجلو لَوْنَها ... نَارًا وأَلْسُنَهَا اللَّوَاحِسَ نُورَا
٦ - فَكَأَنَّمَا سُلَّتْ سُيُوفُ جَدَاولٍ ... ذَابَتْ بِلا نَارٍ فَعُدْنَ غَدِيرَا
٧ - وَكَأَنَّمَا نَسَجَ النَّسِيمُ لِمَائِهِ ... دِرْعًا فَقَدَّرَ سَرْدَها تَقْدِيرَا
٨ - وبَدِيعَةِ الثَّمَرَاتِ تَعْبُرُ نَحْوَهَا ... عَيْنَايَ بَحْرَ عَجَائبٍ مَسْجُورَا
٩ - شَجَرِيَّةٍ ذَهَبِيَّةٍ نَزَعَتْ إلَى ... سِحْرٍ يُؤَثِّرُ في النُّهَى تَأْثِيرَا
١٠ - قَدْ سُرِّجَتْ أغْصَانُها فَكَأَنَّمَا ... قَبَضَتْ بِهِنَّ مِنَ الفَضَاءِ طُيُورَا
١١ - وَكَأَنَّمَا يَأْتِي لِوُقَّعِ طَيْرِهَا ... أَنْ تَسْتَقِلَّ بِنَهْضِهَا وتَطِيرَا
١٢ - مِنْ كُلِّ وَاقِعَةٍ تَرَى مِنْقَارَهَا ... مَاءً كَسَلْسَالِ اللُّجَيْنِ نَمِيرَا
١٣ - خُرْسٌ تُعَدُّ مِنَ الفِصَاحِ فإنْ شَدَتْ ... جَعَلَتْ تُغَرِّدُ بِالمِيَاهِ صَفِيرَا

---

(١) ضراغم: جمع ضرغام وهو الأسد. والعرين: بيته، والمقصود به قصر المنصور.

(٢) غشى: غطى. النضار: الذهب. البلور: نوع من الزجاج النقي الشفاف.

(٤) فتكاتها: الفتك: انتهاز الفرصة للقتل. والإقعاء: الجلوس على المؤخرة.

(٥) تجلو: تظهر . اللواحس: جمع لاحس، وهو الذي يلعق الأشياء بشدة.

(٧) قدَّر: أتقن وأحكم. سردها: نسجها.

(٨) تعبر: تجتاز. مسجورًا: ممتلئًا.

(٩) نزعت إلى سحر: أشبهت السحر. النهى: العقول.

(١٠) سرجت: زينت وحسنت بالمصابيح.

(١١) وُقَّع: جمع واقع وهو الطير الواقع على الأغصان. تستقل: ترتفع وتطير.

(١٢) السلسال: الصافي الرقراق. اللجين: الفضة. نميرًا: عذبًا صافيًا.

التعريف بالشاعر والمناسبة :

هو عبدالجبار بن حَمْدِيس شاعر رقيق الشعور، سَمْح الأخلاق، وُلد سنة ٤٤٧ هـ في جزيرة صِقِلِّيَة، تلك الجزيرة التي ازدهرت فيها الحضارة الإسلامية وأينعت، فلمَّا استولى عليها النورمنديون هاجر منها إلى الأندلس، اتَّصل بالمعتمد بن عباد في إشبيلية وأصبح من شعرائه إلى أن تُوفي سنة ٥٢٧ هـ. وقد برع في جميع فنون الشعر، وبخاصة الوصف، إذ وصل إلى درجة فِي قوة الملاحظة ودقَّة التصوير حَمَلت الأدباء على أن يشبِّهوه بابن الرُّومي الشاعر العباسي الذي بلغ الذِّروة في الوصف.

وقد قال ابن حَمْديس هذه القصيدة عندما زار المنصور بن أعْلى الناس أمير بجاية[1] الذي أنشأ قصْرًا وابتنى فيه بِركة كانت آية في الجمال، وكانت سببًا في إثارة قريحة ابن حمديس، الذي تأثر بهذا المنظر الرائع ووصفه بتلك الأبيات.

الشـــرح :

يصف الشاعر ذلك القصر بأنه عَرِين أسودٍ أقيمت تماثيلها حول بِرْكته، وصوت اندفاع الماء من أفواهها يشبه الزئير، وكأنه من شدة صفائه بلَّور سائل، وهذه الأُسُود- مع سكونها- تبدو كأنها تستعدُّ للثورة والهياج لو وجدت من يُثيرها ويذكِّرها بهجماتها القاضية على فرائسها.

ويستمرُّ الشاعر في وصف ذلك المنظر البديع فيقول: إن تلك الأُسود تبدو كنار متوهِّجة بفضل انعكاس الشمس عليها، وكأن المياه المتدَفِّقة من أفواهها سيوف برَّاقة ذابت بغير تأثير الحرارة، فأصبحت ماء يجري في الجداول ثم يتجمَّع في الغدير، والنسيم العليل يهبُّ عليه فَيُحدث فوق سطحه انكسارات تبدو كأنها دِرْع محكمة الصنع.

ويستطرد ابن حَمديس في وصف البركة فيقول: إن حولها أشجارًا بديعة الثمرات، ذهبية اللون، استقرَّت فوق أغصانها طيور لا تستطيع الطيران ؛ لأن الأغصان تمنعها من التحليق في فضاء الجو الفسيح، والمياه تَسِيلُ من مناقيرها صافية رقراقة كسائل الفضة، ومع أن هذه الطيور خرساء لا تغرِّد -لأنها تماثيل- إلَّا أن تلك المياه المتدفِّقة تحدث صفيرًا كأنه غناء وتطريب.

(١) إحدى المدن الجزائرية الآن .

التعليق :

يصف ابنُ حَمديس في هذه القصيدة- كغيره من الشعراء- مظهرًا من مظاهر الحضارة ومنظرًا من روائع العمران، المتميزة بفخامة المباني، وإتقان هندستها، والإبداع في تزيينها، والمبالغة في تجميلها وزخرفتها. وهو وصف حسِّي رائع، دفعت عاطفة الإعجاب قائله إلى أن ينقل لنا الصورة كما هي أو أحسن، حتى لكأنما المتأمل في هذه الأبيات يقف أمام تلك البركة، ويراها رأي العين.

وأبرز عنصر يَسْتَرْعي اهتمامنا ويستدعي الوقوف عنده هو عنصر الخيال، الذي لجأ إليه الشاعر، وبثَّ من خلاله الحياة في تلك الجمادات، فإذا هي تنبض بالحركة والحياة، فالأُسود (التماثيل) تزأر وتتحفَّز للانقضاض على فرائسها، والطيور تغرِّد وتُصْدِر أعذب الألحان؛ والقصيدة من أولها إلى آخرها مبنيَّة على الخيال البديع، بالاستعارات الجميلة، والتشبيهات الرائعة(وكأن ، وكأنما ، وتخالها ...) ، وابن حَمديس يتميز بقوة الملاحظة، ودقة التصوير، وتتبُّع الجزئيات، فهو عندما يصف الأسود ولونها الذهبي بأنها تبدو كنار متوهِّجة بسبب انعكاس الشمس عليها، لم ينسَ ألسنتها فقد جعلها أشعة نُورٍ انْبَثقت من تلك النار، ثم جعل الماء المتدفق من أفواهها على هيئة النور سيوفًا لامعة ذابت بلا حرارة، وأصبحت مياهًا تجري في الجداول وتتجمَّع في الغدير، ولم يتوقف عند هذا الحدّ، وإنما وصف الغديرَ والنسيمُ يهبُّ عليه مُحْدِثًا انكسارات على سطحه بأنه درع محكمة الصنع والنسج... ولنا أن نَتَتَبَّع ذلك التدرج في الوصف، والدقة في التصوير أثناء حديثه عن الطيور المستقرة على الأغصان.

وبالجملة فالقصيدة دُرَّة رائعة، تذكِّرنا بسينيَّة البحتري في وصف إيوان كسرى، ولو لم يكن لابن حَمديس إلا هي لكَفَتْه.

المناقشة :

١- ما لون العاطفة التي دفعت الشاعر إلى وصف ذلك المنظر؟ أَوُفِّقَ فيه أم لا؟ ولماذا؟

٢- بمَ صوَّر الشاعر صوت المياه المتدفقة من أفواه الأسود؟ أوضح رأيي في هذا التصوير.

٣- أَشرحُ البيت الثاني بأسلوب أدبي يوضح ما اشتمل عليه من تشبيهات.

٤- أضعُ كلمة (هدوءها) مكان كلمة (سكونها) في البيت الثالث، ثم أوضحُ أي المعنيين يكون أقوى، وأذكرُ السبب.

٥- اعتمد ابن حَمديس في وصفه على قوة الملاحظة، ودقة التصوير. أوضِّحُ هذا الكلام من خلال تحليل الصُّور الواردة في الأبيات ٥،٦،٧.

٦- في البيت السابع من الألفاظ ما يُذْكر في موضع الرقَّة، ومنها ما يذكرُ في الحروب، ومنها ما جاء للتوكيد، أذكرُ هذه الألفاظ.

٧- أذكر شاعرًا آخر وصف مظهرًا من مظاهر العمران. وبماذا وصف؟

٨- أذكرُ رأيي في الأبيات. وهل يظهر فيها أثر للتصنُّع؟ أوضح ما أقول.

٣ - ابن الأَبَّار القُضاعي يرثي الأندلس*

النص :

١ - أَدْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلِ اللَّهِ أَنْدَلُسَا ... إِنَّ السَّبِيلَ إِلَى مَنْجَاتِهَا دَرَسَا
٢ - وَهَبْ لهَا مِنْ عَزِيزِ النَّصْرِ ما الْتَمَسَتْ ... فَلَمْ يَزَلْ مِنْكَ عِزُّ النَّصْرِ مُلْتَمَسَا
٣ - يَالَلْجَزِيرَةِ أَضْحَى أَهْلُهَا جَزَرًا ... لِلْحَادِثَاتِ، وأمْسَى جَدُّهَا تَعِسَا
٤ - فَفِي بَلَنْسِيَّةٍ مِنْهَا وقُرْطُبَةٍ ... مَا يَنْسِفُ النَّفْسَ أومَا يَنْزِفُ النَفَسَا
٥ - مَدَائِنٌ حَلَّهَا الإشْرَاكُ مُبْتَسِمًا ... جَذْلَانَ، وارْتَحَلَ الإيمَانُ مُبْتَئِسَا
٦ - وَصَيَّرَتْهَا العَوَادِي العَابِثَاتُ بِهَا ... يَسْتَوحِشُ الطَّرْفُ منْهَا ضِعْفَ مَا أنِسَا
٧ - يَالَلْمسَاجِدِ عَادَتْ لِلعِدا بِيَعًا ... ولِلنِّداءِ غَدَا أثْنَاءَهَا جَرَسَا
٨ - لَهْفِي عَلَيْهَا إلَى اسْتِرْجَاعِ فَائِتِهَا ... مَدَارِسًا لِلْمَثَانِي أصْبَحَتْ دُرُسَا
٩ - يا أَيُّهَا المَلِكُ المَنْصُورُ أنْتَ لَهَا ... عَلْيَاءُ تُوسِعُ أعْدَاءَ الهُدَى تَعَسَا
١٠ - وقَدْ تَوَاتَرَتِ الأنْبَاءُ أَنَّكَ مَنْ ... يُحْيِي بِقَتْلِ مُلُوكِ الصُّفْرِ أنْدَلُسَا
١١ - طَهِّرْ بِلَادَكَ مِنْهُمْ إنَّهُمْ نَجَسٌ ... ولا طَهَارَةَ مَالَمْ تَغْسِلِ النَّجَسَا
١٢ - وامْلأ- هَنِيئًا لَكَ التَّأْيِيدُ- سَاحَتَهَا ... جُرْدًا سَلَاهِبَ أو خَطِّيَّةً دُعُسَا
١٣ - واضْرِبْ لَهُمْ مَوْعِدًا بالفَتْحِ تَرْقُبُهُ ... لَعَلَّ يَوْمَ الأعَادِي قَدْ أتَى وَعَسَى

(*) فوات الوفيات ٢/ ١٩.
(١) درسا: أخلق وتقادم عهده.
(٣) جزرًا: قطعًا وذبائح. جدها: حظها. تعسًا: التعس: السقوط والانحطاط.
(٤) ينسف النفس: يقضي عليها. وينزف النفَس: ينهيه ويقطعه.
(٥) جذلان: فرحان.
(٦) العوادي: النوائب. الطرف: العين.
(٧) بيعًا: كنائس. النداء: الأذان. جرسًا: أي النواقيس.
(٨) لهفي: كلمة يُتحسر بها على فائت. المثاني: آيات القرآن.
(١٠) تواترت: تتابعت. ملوك الصفر: ملوك الروم النصارى.
(١٢) جردًا: خيلًا سابقة. سلاهب: عادية. خطية: رماح. دعسا: الطاعنة التي لا تنثني لقوتها.

التعريف بالشاعر والمناسبة :

ابن الأَبار هو محمد بن عبدالله بن أبي بكر القُضاعي البَلَنْسي، ولد في بَلَنْسية سنة ٥٩٥هـ، كان عالمًا في الفقه والحديث، بصيرًا بالرجال والتاريخ، مُجيدًا في البلاغة والإنشاء، عمل في دواوين الكتابة لبعض ولاة الموحِّدين، وعندما سقطت بلنسية في أيدي النصارى زهد في المقام بالأندلس، فسافر منها إلى المغرب، ثم إلى تونس، حيث عمل كاتبًا لأميرها، وبها قُتل سنة ٦٥٨هـ بعد أن دُبِّرت له مؤامرة دنيئة، فمات مظلومًا مأسوفًا عليه مِنْ معاصريه ومَنْ جاء بعدهم.

وقد نظم ابن الأبار هذه القصيدة أثناء محاصرة النصارى لمدينته بلنسية، حيث أرسله أميرها إلى أبي زكريا يحيى بن حَفْص أمير تونس على رأس وفد لطلب المعونة، وعندما مثل بين يديه أنشده هذه القصيدة يستصرخه فيها لإنقاذ بلنسية والأندلس، فجهَّز له أسطولًا محمَّلًا بالمؤن والأسلحة، غير أن الحصار الشديد الذي فرضه النصارى عليها لم يسمح له بإيصال ما كان يحمل، وعندها استسلمت بلنسية وسقطت في أيدي النصارى سنة ٦٣٦هـ.

الشـــرح :

يخاطب ابن الأبار أبا زكريا أمير تونس فيقول : أدرك الأندلس بخيلك خيل الدين الحنيف، وهَبْ لها النصر العزيز الذي يُنتظر منك، فقد تَعس حظُّها وأصبح أهلها جزرًا لسيوف النصارى، وإن ما حدث لقرطبة ويوشك أن يحدث لبلنسية، لمَّا يُرَوِّع النفوس ويخنق الأنفاس، إذ أصبحت تلك المدن موطنًا للكفر وأهله، بعد أن فارقها المسلمون بؤساء حزينين، حيث فارقها الأنس والسرور، وحلَّها الخوف والذعر، بعد أن حوَّل النصارى مساجدها إلى كنائس، وغدا الأذان والنداء للصلاة أجراسًا لنواقيس النصارى، ويتحسَّر الشاعر على ما كان لها من ماضٍ زاهر، حيث كانت تتردَّد في جنباتها آيات القرآن تلاوة ودراسة .

ويعود الشاعر إلى خِطاب أبي زكريا، بعد أن اسْتَنْهض هِمَّته وحَميَّته للدفاع عن الإسلام وموطنه فيقول: إن ذلك الحدث ليس له إلا أنت، ولن يرْدَع أعداء الإسلام ويوسِعهم خسارة

وذُلًّا غيرك، فقد أجمعت الآراء على أن الأندلس لن تحيا وتعود إلا بقتلك أعداءَها ملوكَ النصارى، فهم نجاسة ينبغي أن تُطهِّر بلادَك منها بما تسفِكُ من دمائهم، إذ لا طهارة ما لم تَغْسِل النجاسة وتُزِلْ أثرها، فاملأ الأرض وساحاتها بخيلك وأسلحتك القاضية، وحدد لهم موعدًا تستردُّ فيه ما سقط في أيديهم، فلعلَّ يومهم أن يأتي، وعسى أن يكون قد اقترب.

التعـليق :

لقد كانت هذه القصيدة ذات نزعة دينية قوية، تدفعها عاطفة حزينة مفجوعة على ما آلت إليه أوضاع المسلمين في الأندلس، ولذا فقد أثارت القصيدة أبا زكريا، وملأت قلبه حفيظة وموجدة وحمية، فأمر -كما أسلفنا- بإعداد العُدَّة لمساعدة بلنسية.

وإذا أمعنا النظر في القصيدة وجدنا الشاعر قد وُفِّق إلى حدٍّ بعيد في التعبير عن حالة الجزع والأسى التي تجيش في نفسه، وتتلجلج في خاطره، حيث جاءت ألفاظه موحية بالغرض الذي يريد، ومتلائمة مع المعنى، فالرقة، والقوة معًا تتمثلان في هذه الأبيات، إذ نجد الشاعر يختار الألفاظ الرقيقة السهلة عند حديثه عن حالة الأندلس، وما صارت إليه من خراب ودمار، وذلك في الأبيات الأولى (١-٨) فالكلمات مليئة بحروف الصفير (السين، الصاد، الزاي) التي تَشعُّ معاني لا حصر لها، وتعطي جرسًا موسيقيًّا بالغ الأثر، كما في البيت الثاني، حسبنا أن نقرأ الشرط الثاني من البيت الرابع لندرك مصداقية ذلك، حيث أجاد الشاعر في اختيار الكلمات الدقيقة التي صوَّرت مشاعره النفسية تجاه ما حدث، ثم نظر إلى كلمة (لَهْفِي) في البيت الثامن وكيف وظَّفها الشاعر للتعبير عن معنى الأسف والتحسُّر. أما الألفاظ القوية الجزلة فنجدها في بقية الأبيات (٩-١٣)، حيث أراد الشاعر أن يعبِّر عن معاني القوة والعزة لاستثارة حَميَّة أبي زكريًّا؛ كي ينهض للدفاع عن الإسلام والمسلمين.

أما الصور والأخيلة فلم تَحْفِل القصيدة بالكثير منها، ويبدو أن الشاعر نظم قصيدته بِعَفْوِيَّة وتلقائية متناهية، لم تَدَعْ له مجالاً للتصنُّع واجتلاب الصورة، وتظهر هذه التلقائية الرائعة في مطلع القصيدة وفي صدر البيت التاسع، ومع هذا فلم تَخْلُ القصيدة من الصور الجميلة، كما

في البيت الخامس، الذي زاده جمالًا المقابلة بين حلول الشرك وابتسامه، وارتحال الإيمان وابتئاسه. وكما في البيت العاشر عندما جعل قتل النصارى حياة للأندلس. والبيت الحادي عشر عندما جعل وجود النصارى في الأندلس نجاسة يجب أن تُغْسل ويُزال أثرها بما يُسْفَك من الدماء.

المناقشة :

١- ما الظروف التي دفعت الشاعر إلى نَظْم قصيدته؟

٢- تلقائية التعبير في مطلع القصيدة مناسب للمقام أم لا؟ ولماذا؟

٣- (يا لَلْجزيرة/ يا لَلْمساجد) ما نوع هذا الأسلوب؟

٤- أضعُ كلمة (ينزع) مكان كلمة (ينسف) في البيت الرابع، وأوضِّحُ أيهما أفضل؟ ولماذا؟

٥- أشرحُ الصور الشعرية الواردة في البيت الخامس، مع توضيح الفن البديعي الذي اشتمل عليه.

٦- هل من الممكن أن يكون القتل سبيلًا إلى الحياة؟ أجِيب من واقع النص الذي أمامي.

٧- في القصيدة بيت يحثُّ فيه الشاعر على إعداد العُدَّة للدفاع عن الأندلس. أحدِّدُ البيت، وأشرحه شرحًا أدبيًّا.

٨- أتحدثُ عن عاطفة الشاعر في هذه الأبيات.

٤ - ابن زيدون يصف الزهراء

النص:

١ - إنِّـي ذَكَـرْتُكِ بالـزَّهْـراءِ مُشْتَـاقَا ... والأُفُقُ طَلْقٌ ومَـرْأَى الأرْضِ قَدْ رَاقَا

٢ - ولِلنَّسِيـمِ اعْـتِـلَالٌ في أصَـائلِهِ ... كَـأنَّهُ رَقَّ لِـي فَـاعْتَـلَّ إشْفَـاقَـا

٣ - والـرَّوْضُ عَنْ مَـائِهِ الفِضِّـيِّ مُبْتَسِمٌ ... كَمَـا شَقَـقْتَ عَنِ اللَّبَّـاتِ أطْـوَاقَا

٤ - نَلْهُو بِمَا يَسْتَمِيـلُ العَيْنَ مِنْ زَهَـرٍ ... جَالَ النَّدى فِيهِ حتَّى مَـال أعْنَـاقَا

٥ - كَـأنَّ أعْيُنَـهُ إذ عَـايَنَـتْ أرَقِـي ... بكَـتْ لِمَا بِي فَجَالَ الدَّمْعُ رَقْـرَاقَـا

٦ - وَرْدٌ تَألَّـقَ في ضَـاحِـي مَـنَابِتِهِ ... فازْدَادَ مِنْهُ الضُّحَى في العَيْنِ إشْرَاقَا

٧ - سَـرَى يُنَـافِحُـهُ نَيْـلُوفَـرٌ عَبِـقٌ ... وسْنَـانُ نَبَّـهَ مِـنْهُ الصُّبْحُ أحْـدَاقَـا

٨ - كُـلٌّ يَهِـيجُ لَنَا ذِكْـرَى تُشـوُّقِنَـا ... إلَيْكِ لَمْ يَعْـدُ عَنْهَا الصَّدْرُ إذْ ضَاقَـا

٩ - لَا سَكَّنَ اللَّـهُ قَـلْبًا عَـقَّ ذِكْـرَكُمُ ... فَلَـمْ يَطِرْ بِـجَنَـاحِ الشَّـوْقِ خَفَّـاقَا

١٠ - لَوْشَاءَ حَمْلِي نَسِيمُ الصُّبْحِ حِينَ سَرَى ... وَافَـاكُـمُ بِفَتًى أضْنَـاهُ مَـالَاقَى

---

(١) الزهراء: ضاحية من ضواحي قرطبة. راق: طاب.

(٢) اعتلال: من العلة، وهي المرض. الأصائل: جمع أصيل، وهو آخر النهار.

(٣) اللبات: جمع لَبَّة، وهي موضع القلادة من النحر إلى الصدر. أطواق: كل ما استدار بشيء.

(٤) جال: سار وطاف. والندى : قطرات الماء على أوراق الأشجار وزهرها في الصباح.

(٥) عاينت: شاهدت. أرقي : الأرق السهر بالليل. رقراق : رقيق ينساب بسهولة.

(٦) ضاحي منابته: الظاهر البارز للشمس.

(٧) ينافحه : يفاخره. نيلوفر : نبات كالريحان ينبت في الماء. وسنان : نائم. أحداق : جمع حدقة، وهي سواد العين.

(٨) يهيج: يثير. لم يعد : لم يسلُ عنها.

(١٠) أضناه المرض : أتعبه، والمضاناة : المعاناة.

التعـــريف بالشاعر والمنـــاسبـــة :

هو أحمد بن عبدالله بن زيدون، ولد في قرطبة سنة ٣٩٤هـ. كان أبوه ثريًّا فاهتمَّ بتثقيفه وتعليمه بنفسه، ثم أوصى به نُخْبة من العلماء والفقهاء فواصلوا العناية به، كما كان لجامع قرطبة أثر كبير في إمداده بمعين من الثقافة والمعرفة.

وقد امتاز ابن زيدون بالذكاء وسرعة البديهة والثقة بالنفس والاعتداد بالأدب، وشارك الحياة الأدبية في الأندلس، وعقد صداقات متعددة مع أدبائها من خلال مُنْتَدَيات الأندلس وبخاصة منتدى ولَّادة بنت المُسْتَكْفِي، التي كانت له قصة حبٍّ معها، ولكنَّ خلافًا دبَّ بينهما وأجَّج ناره بعض الحسَّاد ومنهم ابن عبدوس- وكان وزيرًا- حيث وشى به بسبب رسالته «الهزلية»، التي أرسلها على لسان ولادة متهكمًا بابن عبدوس ليقطع ما بينهما من علاقة، فزُجَّ به في السجن وقُدِّم إلى المحاكمة سنة ٤٣٢هـ. وظلَّ يرجو أن يعفو عنه أبو الحزم بن جَهْوَر بقصائد متوالية أرسلها إليه، ثم برسالته «الجدِّية» التي استعطفه بها ولكنه لم يفلح، فاضطر إلى الفرار حتى شُفع له عند أبي الحزم فعفا عنه.

وانتقل ابن زيدون بعد ذلك إلى إشبيلية في بلاط المعتضد بن عبّاد، ثم في رحاب ابنه المعتمد الذي عرف مكانته العلمية والأدبية، حتى وافته المنية سنة ٤٦٣هـ.

وابن زيدون شاعر أندلسي مبدع، وهو أعظم شعراء الأندلس شأنًا، وقد كتب هذه القصيدة إلى ولَّادة بعد خروجه من سجنه، حينما ألَمَّ بالزهراء فوافاها، وقد خلع الربيع عليها بُرْدَه، ونثر سوسنه ووردَه، وأترع جداولها، وأنطق بلابلها، فتشوَّق إلى لقاء ولَّادة وهاجت به الذكرى فناجاها من بعيد بتلك الأبيات الرائعة.

الشـــرح :

يصوِّر ابن زيـدون في هذه الأبيات مَغَاني الزَّهـراء الفيحاء، وقد أخـذتْ بلُبِّه أرضُها، وما زخـرتْ به من جمال، وذلـك النسيم العليل الـذي يهبُّ رقيقًا وكأنه يشاركه مشاعره فاعتلَّ

إشفاقًا عليه. أما الروض فقد بدا ماؤه الفضّي لامعًا كأنه ثغر ابتسم فبدتْ أسنانه البيض، فخُيِّل إلى الرائي كأنه أطواقٌ انشقت فظهر ما خلفها من نحور الحسان.

وتعود به الذكرى إلى تلك الأيام المُنْصَرِمة حينما كانا يعيشان في صفاء، ويستمتعان بالزهر الذي يترقرق فيه الندى وقد مالتْ أعناقه، كأنه دموع تحدَّرت بين أوراقه، وهذا الورد يلمع فازداد به الضحى جمالًا وإشراقًا، والنَّيْلُوفر يفاخره في رائحته العَبِقَة، وقد نبَّه الصبح أعينه التي غلبها النوم. وهكذا يستمرُّ في وصف ما حوله من روعة أخَّاذة تَهِيْج ذكرياته، حتى يصل إلى بُغْيَته وهو مناجاتها بقوله: إن نسيم الصبح لو حَمَلَهُ لَمَا حمل إلا جسمًا أضناه وأهزله ما لاقى من سجن وتعذيب وآلام فراق.

التعليق:

إن هذه القصيدة تجربة نفسية كاملة عاناها الشاعر فترجمها إلى هذه الأبيات التي يصوِّر نفسه فيها من خلال الطبيعة الحيَّة، التي يصفها ويكاد يجسِّم فيها ألمه وحزنه واضطرابه وحنينه المُتَّقِد الذي لا يسكن ولا يهدأ. وقد مزج ابن زيدون بين موضوعه الذي يدور حول الغزل والشكوى بالطبيعة، وكأنه يريد أن يوازن بين حالته النفسية السيئة وبين مَنْظَر الطبيعة الذي يوحي بالبهجة والمرح والسرور.

وقد تجلَّى في هذه الأبيات ما يشيعه في شعره من موسيقى عذبة. وكلمات رقيقة، وصور تمتزج فيها نفسه بالطبيعة امتزاجًا قويًّا، فها هي الرقَّة تتجلَّى في ألفاظه: (مرأى، أصائله، رقراق، جال، تألَّق، سَرَى، يُنَافح، وَسْنَان)، وها هي صوره الجميلة: (إشفاق النسيم، ابتسام الزهر، أعينه عاينت، بكت، جال الدمع رقراقا، منافحة النيلوفر)، ولنقرأ الأبيات ٢، ٣، ٥، ٧، ١٠ نجدْ خيالًا محلِّقًا، يلفت النظر ويسحر الفؤاد.

إذًا فتلك أبيات تصوِّر نفسية الشاعر تصويرًا أمينًا صادقًا صدر عن تجربة صادقة عاناها الشاعر، وتلك أبيات تصوِّر البيئة الأندلسية بما فيها من طبيعة حية أخَّاذة، أجاد الشاعر مزج نفسه بها في قوة واقتدار.

المناقشة :

١ - ما الذي دعا ابن زيدون إلى نظم هذه القصيدة؟ وما مشاعره السائدة فيها؟

٢ - أجاد ابن زيدون مزج نفسه بالطبيعة الحية من حوله. أوضِّحُ هذا القول مع التمثيل.

٣- تخيَّر ابن زيدون لأبياته ألفاظًا رقيقة. فهل نجد ذلك ملائمًا لموضوعه؟ ولماذا؟

٤ - تظهر في الأبيات عاطفتان: عاطفة الماضي الجميل، وعاطفة الحاضر المحروم. أعيِّنُ الأبيات التي تمثِّل كلًّا من العاطفتين.

٥ - «لاسكَّن الله قلبًا عقَّ ذكركم». مانوع هذا الأسلوب؟ وما الغرض منه؟

٦ - «لوشَاء حَمْلي نسيمُ الصبح». لماذا كان الشاعر موفقًا حين اختار نسيم الصبح لحمله؟

٧- هل نجح ابن زيدون في نَقْل تجربته الشعورية التي مرَّ بها؟ أجيبُ من خلال معرفة شيء عن حياته.

٨- أضعُ للأبيات عنوانًا مناسبًا.

٥- ابنُ خفاجةَ يصفُ الجبل

النص :

١- وأرْعَنَ طَمَّاحِ الذُّؤابَةِ بَاذِخٍ يُطَاوِلُ أعْنَانَ السَّمَاءِ بِغَارِبِ
٢- يَسُدُّ مَهَبَّ الرِّيحِ مِنْ كُلِّ وِجْهَةٍ ويَزْحَمُ لَيْلًا شُهْبَهُ بالمَنَاكِبِ
٣- وَقُورٍ عَلَى ظَهْرِ الفَلَاةِ كَأَنَّهُ طَوَالَ اللَّيَالِي مُفْكِرٌ بالعَوَاقِبِ
٤- يلُوثُ عَلَيْهِ الغَيْمُ سُودَ عَمَائِمٍ لَهَا مِنْ وَمِيضِ البَرْقِ حُمْرُ ذَوَائِبِ
٥- أصَخْتُ إلَيْهِ وهْوَ أخْرَسُ صَامِتٌ فَحَدَّثَنِي لَيْلَ السُّرَى بالعَجَائِبِ
٦- وقَالَ ألَا كَمْ كُنْتُ مَلْجَأَ قَاتِلٍ ومَوْطِنَ أوَّاهٍ تَبَتَّلَ تَائِبِ
٧- وكَمْ مَرَّ بِي مِنْ مُدْلِجٍ ومُؤَوِّبٍ وقَالَ بِظِلِّي مِنْ مَطِيٍّ ورَاكِبِ
٨- فَمَا كَانَ إلَّا أنْ طَوَتْهُمْ يَدُ الرَّدَى وطَارَتْ بِهِمْ رِيحُ النَّوَى والنَّوَائِبِ
٩- فَحَتَّى مَتَى أَبْقَى وَيظْعَنُ صَاحِبٌ أُوَدِّعُ مِنْهُ رَاحِلًا غَيْرَ آيِبِ
١٠- وَحَتَّى متَى أرْعَى الكَوَاكِبَ ساهِرًا فَمِنْ طَالِعٍ أُخْرَى اللَّيَالِي وغَارِبِ

---

(١) أرعن : مرتفع. باذخ : عال. طماح الذؤابة : شديد علوّ القمة. الغارب : الكاهل.

(٣) وقور: من الوقار، وهو الرزانة. الفلاة : الصحراء الواسعة.

(٤) يلوث: يلف. وميض البرق : إشعاعه. ذوائب : أطراف الشعر من مقدمة الرأس.

(٥) أصخت: استمعت. السرى : السير ليلًا.

(٦) أواه : تائب. تبتل : انقطع للعبادة.

(٧) مدلج: من يسير في الظلام. مؤوب : من الإياب وهو الرجوع. قال : نام وقت القيلولة.

(٨) طوتهم: أخفتهم والمراد أماتتهم. الردى: الموت. النوى : الفراق. النوائب: المصائب.

(٩) يظعن : يرحل. آيب : راجع.

(١٠) أرعى الكواكب : أراعيها وأساهرها.

التعريف بالشاعر والمناسبة:

هو أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة، وُلِدَ سنة ٤٥٠هـ في بلدة «شَقْر» وهي مدينة منعزلة في شرقي الأندلس، تحيط بها المياه من جميع الجهات وتشتهر بجمال طبيعتها، وسافر إلى «عدوة» في المغرب، ولكنه سرعان ما عاد إلى وطنه الجميل الذي هام بحبه.

عاش ابن خفاجة حياة هادئة، منقطعًا لحياة الترف واللهو، ولم يتولَّ عملًا من الأعمال، وإنما فرَّغ نفسه للشعر، ولذا لم يشارك في أحداث السياسة في عصره الزاخر بالتقلُّبات السياسية وهو عصر ملوك الطوائف. وقد عاش حياة طويلة حتى توفي في بلدته سنة ٥٣٣هـ بعد حياة حافلة بالترف وقول الشعر.

وقد اشتهر ابن خفاجة بوصف الطبيعة، حيث تناول جميع مظاهرها، ولأجل هذا سُمِّي بـ«الشاعر البُستاني» وكانت طبيعته التي تستجيب لمظاهر الجمال في الحياة هي التي فرضت شخصيتها على شعره، كما كان لنشأته المترفة وجمال بلدته أثر في تغذية خياله، وتكوين تأمُّلاته، فانطلق يصف الطبيعة حيَّة وجامدة حتى لُقِّب بـ«صَنَوْبري الأندلس» ليقابل صنوبري المشرق الذي شابهه في شعره واهتماماته.

كان ابن خفاجة- كما علمت- شاعر الطبيعة، يصف معالمها، ويَسْتَوْحِي من مشاهدها نظراته وتأمُّلاته في الحياة، وقد دبَّج هذه القصيدة في الاعتبار ووصف الجبل ومناجاته على نَسَق جديد، فقد أشرك النفس الإنسانية بسرّ الطبيعة، وهو ما يُسمَّى بـ «حسِّ الطبيعة».

الشــرح:

يتحدث ابن خفاجة في هذا النص عن جبل عالي القِمَّة، يطاول السماء بكاهله ويحول دون سير الريح وهبوبها، ويزاحم الكواكب بمناكبه، ويصف هذا الجبل بأنه وقور على ظهر الصحراء كأنما يفكر في العواقب، وأن السحب قد ارتطمت به فلفَّت على قِمَّته عمامة سوداء لها ذوائب حمر من وميض البرق، ثم يسرد علينا الشاعر الحوار الطريف الذي دار بينه وبين

الجبل، وأنه حدَّثه بالعجائب، وقصَّ عليه قصصًا غريبة، وذكر بين يديه أخبار من التجؤوا إليه من القتلة، والعُبَّاد التائبين، والمسافرين، ويذكر مصيرهم الذي آلوا إليه وهو الموت، فيبكي عليهم ويندب حاله بعدهم، فيعبِّر عن ضيقه من الحياة وطول البقاء، الذي ليس وراءه سوى الأسى على فراق الأحبة، وتوديع الأخلاء إلى غير رجعة.

التعليق:

تُمَثِّل هذه القصيدة تجربة نفسية عاناها الشاعر فنقلها إلينا في هذه الأبيات، وترجمها بصدق منقطع النظير، فنحن نحسُّ أن الشاعر يعبِّر عن نفسه في هذه الأبيات، فالجبل مثله محزون لما يرى من مصير الناس جميعًا صالحين وطالحين إلى الموت والفناء وفقدان الحياة، وهو مثله أيضًا يستطيع البقاء بعد رحيل كل الصِّحَاب، ولذا فهو ينتظر نهاية الرحلة بعد أن عاش ثمانين عامًا سئم فيها تكاليف الحياة.

وقد وُفِّق الشاعر في اختيار الأسلوب الذي يعبر به عن تلك التجربة التي مرَّ بها، فهو عندما أراد أن يصف الجبل وشموخه اختار ألفاظًا قوية مثل: (أرْعَن، طمَّاح، باذخ، المناكب، وقور) ولعلَّ هذه الألفاظ الجزلة تناسب ذلك الجبل المُشمخِرَّ، أما عندما أراد أن يعبر عن حُزنه وألمه لمصير الناس اختار الألفاظ الرقيقة والعبارات العذبة، ولعلنا ندرك ذلك بوضوح في الأبيات الثلاثة الأخيرة.

أما الخيال فقد بلغ الشاعر الذِّروة فيه، فالقصيدة- برُمَّتِهَا- تمثِّل صورة خيالية، فلا يكاد يخلو بيت فيها من الصور البيانية الرائعة، التي تَسْترعي الأنظار، وتَسْتَلْفِت الخواطر بأناقتها وجمالها، وحسْبُنا أن ننظر إلى البيت الثالث:

وَقُورٍ عَـلَى ظَـهْرِ الفَـلاَةِ كَـأنَّهُ ... طَـوَالَ اللَيَـالِي مُفْكِرٌ بِالعَـواقِبِ

فهو يوحي لك بمنظر شيخ هَرِم جلس يفكِّر في الأيام التي مرت، والأحداث التي جرت.

وإن شئنا أيضًا فننظر إلى قوله:

يلُوثُ عَلَيْهِ الغَيْـمُ سُـودَ عَمَـائِم ... لَهَا مِنْ وَمِيضِ البَرْقِ حُمْرُ ذَوَائِبِ

فقد جعل السحب التي تحيط بقمة الجبل كعمامة سوداء لها ذوائب حمر من وميض البرق.

كما استعان الشاعر ببعض ألوان البديع لتوضيح معانيه، وإعطاء أسلوبه شيئًا من الجمال والإيقاع الموسيقي كالطباق في قوله: (سود عمائم، وحمر ذوائب) و(أبقى، يظعن) و(طالع، وغارب) أو الجناس في قوله: (النوى، والنوائب)، و(حتى، متى)...

وبَعْد، فإن القصيدة تُعَدُّ من عيون الشعر العربي لما فيها من جِدَّة الفكرة، وجمال الأسلوب، وروعة التصوير، ولما فيها من تأمُّل في مظاهر الكون، واعتبار بأحْدَاث الدنيا.

المناقشة :

١- كيف كانت حياة ابن خفاجة؟ وما أثرها في شعره؟

٢- سُمِّي ابن خفاجة بـ «الشاعر البستاني»، ولُقِّب بـ «صنوبري الأندلس». فما العلة في ذلك؟

٣- فرضت طبيعة ابن خفاجة- التي تستجيب لمظاهر الجمال- شخصيتها على شعره. أشرح هذا القول.

٤- ما غرض ابن خفاجة من وصف الجبل؟

٥- بالغ ابن خفاجة في وصف ارتفاع الجبل. فكيف تم له ذلك؟

٦- ما المنظر الذي يتراءى لنا عندما نقرأ البيت الثالث؟

٧- أشرح الصور الشعرية الواردة في البيت الرابع وأبيِّن رأيي فيها.

٨- ما الشعور المشترك الذي يجمع بين الشاعر والجبل؟

٩- في البيت الثامن لون من ألوان البيان، وآخر من ألوان البديع. أوضحهما، مع بيان أثرهما في الأسلوب.

١٠- أنثر الحوار الذي دار بين الشاعر والجبل بأسلوب أدبي.

٦ - لسانُ الدينِ بنُ الخطيب يتغزّل

النص :

١ - جَادَكَ الغَيْثُ إِذَا الغَيْثُ هَمَى ... يَا زَمَانَ الوَصْلِ بِالأَنْدَلُسِ
٢ - لَمْ يَكُنْ وَصْلُكَ إِلَّا حُلُمَا ... فِي الكَرَى أَوْ خُلْسَةَ المُخْتَلِسِ

* * *

٣ - يَا أُهَيْلَ الحَيِّ مِنْ وَادِي الغَضَا ... وَبِقَلْبِي مَسْكَنٌ أَنْتُمْ بِهِ
٤ - ضَاقَ مِنْ وَجْدِي بِكُمْ رَحْبُ الفَضَا ... لَا أُبَالِي شَرْقَهُ مِنْ غَرْبِهِ
٥ - فَأَعِيدُوا عَهْدَ أُنْسٍ قَدْ مَضَى ... تُعْتِقُوا عَانِيكُمُ مِنْ كَرْبِهِ
٦ - وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَحْيُوا مُغْرَمًا ... يَتَلَاشَى نَفَسًا فِي نَفَسِ
٧ - حَبَسَ القَلْبَ عَلَيْكُمْ كَرَمًا ... أَفَتَرْضَونَ عَفَاءَ الحُبَّسِ

* * *

٨ - مَالِقَلْبِي كُلَّمَا هَبَّتْ صَبَا ... عَادَهُ عِيدٌ مِنَ الشَّوْقِ جَدِيدْ
٩ - جَلَبَ الهَمَّ لَهُ وَالوَصَبَا ... فَهْوَ لِلأَشْجَانِ فِي جَهْدٍ جَهِيدْ
١٠ - كَانَ فِي اللَّوْحِ لَهُ مُكْتَتَبَا ... قَوْلُهُ: إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدْ
١١ - لاعِجٌ فِي أَضْلُعِي قَدْ أُضْرِمَا ... فَهْيَ نَارٌ فِي هَشِيمِ اليَبَسِ
١٢ - لَمْ يَدَعْ فِي مُهْجَتِي إِلَّا ذَمَا ... كَبَقَاءِ الصُّبْحِ بَعْدَ الغَلَسِ

---

(١) جادك الغيث: أنزل اللَّه الغيث بكثرة. همى: هطل بغزارة.
(٢) الكرى: النوم. خُلسة: خُفية.
(٣) وادي الغضا: اسم مكان.
(٤) وجدي: الوجد: الحب وشدة الشوق. رحب: واسع.
(٥) العاني: الأسير. الكرب: الحزن والغم.
(٦) المغرم: المتيَّم بالحب. يتلاشى: ينتهي شيئًا فشيئًا.
(٧) عفاء: هلاك. الحبَّس: كل شيء وقفه صاحبه من نخل وغيره.
(٩) الوصب: المرض. الأشجان: الأحزان.
(١١) لاعج: هوًى محرق. أضرم: أشعل.
(١٢) مُهجتي: نفسي. ذما: بقية الروح. الغلس: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح.

التعريف بالشاعر والمناسبة:

لسان الدين بن الخطيب هو أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن سعيد الخطيب، ولد بغرناطة سنة ٧١٣هـ، ونشأ فيها وكانت مركزًا عظيمًا من مراكز الثقافة والعلم والأدب والفلسفة فنهل من هذا كله، وتجلَّى لنا ذلك فيما خلَّفه من تراثه الأدبي والفكري المتنوِّع .

تولَّى ابن الخطيب ديوان الإنشاء في دولة بني الأحمر، ثم عُيِّن وزيرًا للسلطان الغنيِّ بالله، ثم نُفِي إلى المغرب بعد الإطاحة بحكمه، وبعد أن استرد الغني بالله سلطانه استقدم ابن الخطيب وخلع عليه لقب «ذي الوزارتين» وزارة السيف ووزارة القلم، ولكن عقارب الوشاية دبَّت بينهما فتنكر له السلطان ففرّ منه إلى المغرب، حتى تمكن سلاطين بني الأحمر منه فقتلوه خنقًا في مدينة «فاس» بعد أن اتهموه بالاشتغال بالفلسفة، وكان ذلك سنة ٧٧٦هـ. وبقتله تكون الأندلس قد فقدت عبقرية فذّة جامعة لكثير من فنون العلم والمعرفة، حيث ترك مؤلفات كثيرة أشهرها كتاب «الإحاطة في أخبار غرناطة»، كما خلَّف لنا ثروة أدبية جامعة نثرًا وشعرًا، وكان من القلائل الذين توافرت لهم الإجادة في فنَّي الأدب.

وهذا النص الذي أمامنا جزء من إحدى موشحاته التي نظمها ومزج فيها بين المدح والغزل ووصف الطبيعة، وكان منها هذه الأبيات التي قالها متغزِّلًا.

الشـــرح :

يدعو الشاعر في مطلع موشَّحته بالسُّقيا لذلك الزمن الذي عاشه في غرناطة وسعد فيه؛ لأنه تمتَّع فيه بلقاء الأحبَّة. ويحنُّ إلى تلك الذكريات السعيدة، وتفيض نفسه شوقًا لتلك الأيام العِذاب التي انقضت سريعة كالحلم، وذهبت بخفاء فلم يعد لها وجود في عالم الواقع.

وينتقل بعد ذلك لنداء أحبته الذين سكنوا قلبه، وضاقت بسبب الشوق إليهم أرجاءُ الأرض وجهاتها فلم تعد تعني له شيئًا، ويدعوهم بتحنُّن وتودُّد إلى أن يعيدوا أيام الأنس والبهجة، حتى يفرِّجوا عنه ما هو فيه من ضيق وغم؛ لأن شوقه إليهم يكاد يقضي عليه. ومع أنه وقف قلبه على

حبِّهم تكرُّمًا منه، إلا أنهم قابلوا ذلك الحبَّ والودَّ بالهجران الذي سيؤدي به إلى الهلاك.

ويستمر في عرض معاناته فيقول: إن الرياح كلَّما هبَّت من قِبَل أحبابه عادت إليه أشواقه من جديد، وجلبت له الهمَّ والمرض، وأصبح يغالب أحزانه وكأنه قد قُدِّر عليه أن يعيش دومًا في عذاب شديد، بسبب ذلك الحب الذي أوقد النيران في قلبه، فاتّقدت بين جوانحه، وسرت في أوصاله، كما تسري النار في الهشيم، فلم يبق في حياته إلَّا رمق يسير بمقدار مايبقى من ظلمة الليل في الغلس، سيقضي عليها نور الصباح لا محالة.

التعليق:

إذا تأملنا هذا الجزء من موشحة ابن الخطيب وجدنا أن الشعور العميق بالحزن والانكسار هو أبرز مايميزها، ويتجلى ذلك في إشارة الشاعر لماضيه المبهج السعيد، وإفاضته في الحديث عن حاضره البائس الحزين، الذي يشكو فيه من ألم البعد ومرارة الهجر.

وقد ولَّد لنا ذلك الشعور العاطفي الحزين صورًا وأخيلة جميلة، كتشبيه الوصل بالحلم ليعبر عن أساه بمروره سريعًا، وَتشبيهه قلبه بالمسكن الذي وهبه الأحباب ليقيموا به، وتشبيهه نفسه بالأسير يتوسل إلى آسريه ليفكُّوا قيده، وننظر إلى تلك الصورة الجميلة التي شبه فيها مايجده في نفسه من ألم الشوق والهجر بالنار التي تضطرم بين أحشائه. وقد أكسبت تلك الصور معاني الشاعر وضوحًا وجمالًا، وبإمكاننا أن نستبين صورًا أخرى لنتذوق ما فيها من جمال كالصورة التي ختم بها موشحته. وإضافة إلى ماسبق استعان الشاعر ببعض فنون البديع كالطباق بين ضاق ورحب، وبين شرقه وغربه، وبين الصبح والغلس، وكالجناس الذي يعمد فيه إلى تكرار بعض الألفاظ لإحداث إيقاع موسيقي جذاب كقوله: نفسًا في نفس، وعاده عيد، وجهد جهيد. وكالاقتباس في قوله: «إن عذابي لشديد».

وأخيرًا فإن هذه الموشحة تميزت- كبقية الموشحات- باللفظ الرقيق، والعبارات السلسة، والإيقاع الموسيقي الرشيق.

المناقشة :

١ - أعيِّن الأجزاء التي تتكون منها الموشحات في ضوء هذا النص.

٢ - إلام يحنُّ ابن الخطيب في مَطْلع موشحته؟

٣ - مَنِ المخاطب بقول الشاعر: جادك الغيث؟ ومانوع هذه الجملة؟ وما الغرض منها؟

٤ - علام يدل تشبيه الشاعر الوصل بالحلم؟

٥ - ما الغرض من التصغير في قوله: يا أُهيل الحيّ؟

٦ - ما أثر الوجد على الشاعر؟ وكيف تعود إليه الأيام الجميلة؟

٧ - ما الغرض من الاستفهام في قوله: أفترضون عفاء الحبَّس؟

٨ - يقول الشاعر: إنه قُدِّر عليه أن يعيش في همٍّ دائم. أعيِّنُ ماينصُّ على ذلك.

٩ - أوضحُ الصورة الخيالية التي ختم بها الشاعر موشحته.

١٠ - أتحدثُ بإيجاز عن عاطفة الشاعر في هذه الموشحة.

النثر الأندلسي

١- النثر الأدبي :

نلاحظ حين نتتبَّع تطوُّر النثر الأدبي في الأندلس أنه كان خلال عصر الولاة مرتبطًا بظروف مرحلة الفتح، وهي مرحلة غير مستقرة سياسيًّا، فالخطابة ضرورة تقتضيها ظروف الحرب والمناسبات السياسية والدينية المختلفة، والكتابة كانت ضرورة أيضًا تقتضيها ظروف الفتح والحُكْم وتيسير الشؤون، وقد حفظت لنا المصادر التاريخية أسماء بعض كتَّاب هذه الفترة مثل: خالد بن يزيد الذي كان كاتبًا ليوسف الفِهْري أحد ولاة الأندلس، وأميَّة بن يزيد الذي دخل الأندلس مع جيش من جيوش المسلمين، واتَّصل بخالد بن يزيد وجعله كاتبًا معه.

وربما كانت من أوثق الرسائل التي وصلت إلينا تلك الرسالة التي أرسلها عبدالعزيز بن موسى ابن نصير كعهد لأحد حكام القُوط ويُسمَّى «تُودمير» وجاء فيها : «بسم اللَّهِ الرَّحمنِ الرَّحيم، مِنْ عبدِالعزيز إلى تُودْمِير، إنهُ نزلَ عَلَى الصُّلْحِ وإنهُ لهُ عَهْدُ اللَّه وذِمَّتُهُ، ألَّا يُنْزَعَ عَنْ مُلْكِه، وَلا أَحَدٌ مِنَ النَّصَارَى عَنْ أمْلَاكِهِ، وأَنَّهُمْ لَايُقْتَلُونَ ولَا يُسْبَوْنَ أولادَهُمْ ونِسَاءهُمْ، ولايُكْرَهُونَ عَلَى دِينِهِمْ، ولا تُحْرَقُ كَنَائسُهُمْ، مَا تُعُبِّدَ ونُصِحَ، وأنهُ لا يُؤْوِي لنا عَدُوًّا ولا يَخُونُ لنَا أمنًا...»

كما تُعَدُّ خطبة طارق بن زياد المشهورة في فتح الأندلس أول خطبة قيلت في الأندلس.

إن خصائص النثر في هذه الفترة هي خصائص النثر الأموي بصورة عامة، من مَيْل إلى الإيجاز، دون مقدمات طويلة، أو ألقاب عديدة، ثم عناية بالعبارة المركزة ذات الأداء المباشر دون تلوين أو زخرف.

أما في عصر الإمارة المستقلة، فقد اقتصر النثر أيضًا على أشكاله التقليدية، كالخطب والرسائل والوصايا، وكان أمرًا طبيعيًّا في تلك الفترة المبكِّرة من تاريخ الأندلس، إذ تلائم حياة الأندلسيين السياسية والاجتماعية والثقافية، وكان المشرق هو المصدر الأول لاتجاهات تلك

الأشكال الأدبية، فكان لايزال يحمل طابع الجزالة الخالصة، بل قد يدخله الغريب أحيانًا كمظهر من مظاهر تلك الجزالة، وقد اعتمد على بعض الزخارف البديعية مثل: السجع، والطباق، والاقتباس، وإن كان ذلك دون تكلّف أو افتعال.

وقد عُرف بعض الكتّاب من هذه الفترة أمثال: فُطَيس بن عيسى، وخطاب بن يزيد اللذين كانا كاتبين لهشام بن عبدالرحمن ثم لابنه الحَكَم، ومثل: حجّاج العُقيلي وكان كاتبًا للحكم، وكان بعض الأمراء كتَّابًا وخطباء ممتازين مثل: الأمير عبدالرحمن الداخل، فمِنْ أمثلة خطبه ما قاله لأصحابه يحثُّهم على القتال: «هَذَا الْيَوْمُ هُوَ أَشَدُّ مَا يُبْنَى عَلَيْهِ، إمَّا ذُلُّ الدَّهْرِ، وإمَّا عِزُّ الدَّهْرِ، فَاصْبِرُوا سَاعَةً فِيمَا لا تَشْتَهُونَ، تَرْبَحُوا بِهَا بَقِيَّةَ أَعْمَارِكُمْ فِيمَا تَشْتَهُونَ».

وكتب أيضًا إلى خارج عليه رسالة يقول فيها: «أَمَّا بَعْدُ، فَدَعْنِي مِنْ مَعَارِيضِ المَعَاذِيرِ، والتَّعَسُّفِ عَنْ جَادَّةِ الطَّرِيقِ، لَتَمُدَّنَّ يَدًا إلَى الطَّاعَةِ، والاعْتِصَامِ بِحَبْلِ الجَمَاعَةِ، أَوْ لأَزْوِيَنَّ[1] بَنَانَهَا عَلَى رَضْفِ[2] المَعْصِيَةِ نَكَالًا بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ، وَمَا اللَّهُ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ».

ومن أمثلة الوصايا ما وجَّهه الأمير الحكم إلى ابنه عبدالرحمن حين شعر بدنوّ أجله، قال له: «إنِّي قَدْ وَطَّدْتُ لَكَ الدُّنْيَا وذَلَّلْتُ لَكَ الأعْدَاءَ، وأَقَمْتُ أَوَدَ[3] الخِلَافَةِ، وَأمِنْتُ عَلَيْكَ الخِلَافَ والمُنَازَعَةَ، فَاجْرِ عَلَى ما نَهَجْتُ مِنَ الطَّرِيقَةِ، واعْلَمْ أَنَّ أَوْلَى الأمُورِ بِكَ وَأَوْجَبَهَا عَلَيْكَ حِفْظُ أَهْلِكَ، ثُمَّ عَشِيرَتِكَ، ثُمَّ الذِينَ يَلُونَهُمْ مِنْ مَوَالِيكَ وَشِيعَتِكَ، فِيهِمْ أَنْزِلْ ثِقَتَكَ وَإِيَّاهُمْ وَاسِ مِنْ نِقْمَتِكَ».

وقُبَيْلَ انتهاء هذا العهد وإعلان الخلافة تطوّر النثر تطورًا كبيرًا، ويتضح ذلك من كثرة الكتّاب الذين حفظت أسماءهم كتبُ التاريخ والتراجم، فكان من كتاب الأمير عبدالرحمن الأوسط: عبدالكريم بن عبدالواحد، وسفيان بن عبد ربه، وعيسى بن شهيد، وكان من كتاب الأمير عبدالله بن محمد: الزَّجالي، وعبدالله بن محمد بن أبي عبده، وموسى بن زياد.

---

(١) زوى الشيء: جمعه وقبضه. (٢) الرضف: الحجارة المحماة. (٣) الأود: الاعوجاج.

وقد تأثَّر الكتّاب بأسلوب عبدالحميد الكاتب الذي كان أولَ من أطال الرسائل وأكثر من التحميدات، ثم بأسلوب الجاحظ الذي تميز بالميل إلى الجمل القِصَار، وإجادة استعمال حروف الجر، وأداء المعنى الواحد بعدة جمل قد تبدو في الظاهر تكرارًا ولكنها تَجْسيم للمعنى وَتَفَنُّنٌ في إبرازه.

وكان الجاحظ أكثرَ شهرة، فقد وصلت الأندلس بعض كتبه كرسالة «التربيع والتدوير»، وكتاب «البيان والتبيين»، وتَتَلْمَذَ على أسلوبه الكثير من الأندلسيين.

فمن نماذج خطب هذه الفترة تلك الخطبة التي ألقاها الأمير عبدالرحمن الأوسط بعد دفن والده، ويظهر فيها تأثير عبدالحميد الكاتب، فهي ذات مقدمة مُسْهبة وتحميد مُطْنب، قال:

«الحَمْدُ للَّه الذي جَعَلَ الموْتَ حَتْمًا مِنْ قَضَائه، وَعَزْمًا مِنْ أمْره، وأجْرَى الأمُورَ عَلَى مَشيئَته، فَاسْتَأْثَرَ بالمَلَكُوتِ والبَقَاء، وأذَلَّ خَلْقَهُ فَمَا لَهُمْ مِنْ نَجَاةٍ مِنَ الفَنَاء، تَبَارَكَ اسْمُه، وتَعَالَى جَدُّه، صَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبيِّه وَرَسُولِه وَسَلَّمَ تَسْليمًا، وكَانَ مُصَابُنَا بالإمَام رَحمَهُ اللَّهُ، ممَّا جَلَّتْ بِه المُصيبَة، وَعَظُمَتْ به الرَّزيَّة، فَعنْدَ اللَّه نَحْتَسبُه وإيَّاهُ نَسْألُ إلْهَامَ الصَّبْر، وإلَيْه نَرْغَبُ فِي كَمَالِ الأجْرِ والذُّخْر، وَعَهِدَ إلَيْنا فِيكُمْ بمَا فِيهِ صَلاحُ أحْوالِكُمْ، وَلَسْنَا ممَّنْ يُخَالفُ عَهْدَهُ، بَلْ لَكُمْ لَدَيْنَا المَزيدُ إنْ شَاءَ اللَّهُ».

ويظهر تأثير الجاحظ في رسالة بعث بها الأمير محمد بن عبدالرحمن الأوسط إلى عبدالملك ابن أميَّة - وكان الأمير قد اختاره كاتبًا له - ففيها تَفَنُّن في استخدام حروف الجر والاعتماد على الجمل القصار، يقول: «لَقَدْ فَهمْنَا عَنْك، وَلَمْ نَأت مَا أتَيْنَاهُ عَنْ جَهْلٍ بك، لَكن اصْطنَاعًا لَك وعَائدَةً عَلَيْك، وَقَدْ أبَحْنَا لَكَ الاسْتعَانَةَ بأهْلِ اليَقَظَة منَ الكُتَّاب فَتخيَّرْ منْهُمْ مَنْ تَثقُ به، وتَعْتَمدُ عَلَيْه، وَنَحْنُ نُعينُكَ عَلَى أمْركَ بتَفَقُّدِ كُتُبنَا، وَالإصْلاح عَلَيْك، إلَى أنْ تَرْكَبَ الطَّريقَةَ، وتُبْصرَ الخدْمَةَ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى».

وقد استمرَّ النثر متأثرًا بأسلوب الجاحظ طَوال عهد الخلافة الأموية بالأندلس، ومن الأسماء التي لمعت في هذه الفترة: ابن جَهْور، وابن أبي عامر، والمصحفي، ومن نماذج هذه الفترة

رسالة عبدالرحمن الثالث إلى حكام الأقاليم يخبرهم باتِّخاذ لقب خليفة، يقول:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ أمَّا بَعْدُ : فَإِنَّا أحَقُّ مَن اسْتَوْفَى حَقَّه، وأجْدَرُ مَن اسْتَكْمَلَ حَظَّه، وَلَبِسَ مِنْ كَرَامَةِ اللَّه مَا أَلْبسه، لِلَّذي فَضَّلَنَا به، وأظْهَرَ أثَرَتَنا فيه، وَرفَعَ سُلْطَانَنَا إلَيْه، ويَسَّرَ عَلَى أيْدِينَا دَرْكَه، وسَهَّل بدَوْلَتِنا مَرَامَه، وَلِلَّذي أشَادَ فِي الآفاق مِنْ ذِكْرِنَا وَعُلُوِّ أمْرِنَا، وَأعْلَنَ مِنْ رَجَاءِ العَالمينَ بِنَا، وَأعَادَ مِن انْحِرَافِهِمْ إلَيْنَا، وَاسْتِبْشَارِهِمْ بِدَوْلَتِنَا، وَالحَمْدُ لِلَّهِ وَلِيِّ الإنْعَامِ بِمَا أَنْعَمَ بِه، وأهلِ الفَضْلِ بِمَا تَفَضَّلَ عَلَيْنَا فِيه».

٢ - النثر التأليفي:

ظهر هذا النوع من النثر خلال فترة الخلافة وتمثل ذلك في فرعين: تاريخ أدبي، وتأليف أدبي(١).

الأول: مثل كتب الطبقات والتراجم مثل : كتاب (الحَدَائِق) لأبي عمر أحمد بن فرج الجيّاني، وأما الثاني: فهو ما يتناول الثقافة العربية الخالصة، وأهم الكتب التي ظهرت من هذا النوع كتاب (العِقْد الفريد) للشاعر والأديب الأندلسي أحمد بن عبد ربه.

وقد استمرَّ النثر في الفترة التي لحقت انتهاء الخلافة الأموية في الأندلس متأثرًا بالنثر المشرقي وخاصة بأسلوب ابن العميد، الذي يميل إلى الإطناب ويعتمد على المحسنات كالسجع، والجناس، والمقابلة، وتضمين الفقرات بالأمثال والشعر.

ويمثِّل ابن حَزْم (وُلِد سنة ٣٨٤هـ وتوفي سنة ٤٥٦هـ) أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد أدباء هذه الفترة وعلماءها المثقفين، فقد وضع كثيرًا من المؤلفات في فنون مختلفة، ولو بقيت كلها لكان لها وحدها أكبرُ مكان في المكتبة الأندلسية، ومن أهم كتبه في تاريخ الأديان كتاب (الفِصَل في المِلَل والأهْوَاء والنِّحَل)، وفي التاريخ (جَمْهَرَةُ أنْسَابِ العَرَب)، وفي الأدب كتابه (طَوْقُ الحَمَامة).

---

(١) الفرق بينهما أن الأول تاريخ صِيغ بأسلوب أدبيّ ، بينما الثاني أدبيٌّ صِرفٌ وسيلة وغاية .

كما نجد أبا مروان حيَّان بن خلف بن حَيَّان (وُلِدَ سنة ٣٧٧هـ وتُوفِي سنة ٤٦٩هـ) واحدًا من كبار كتَّاب التاريخ عامة، والتاريخ الأدبي خاصة في هذا العصر، ومن كتبه: (تاريخ فقهاء قرطبة) ولم يصل إلينا، وكتاب (المقْتَبَس) ويتناول تاريخ الأندلس من فتحها إلى زمانه، وقد وصلت إلينا أجزاء منه.

وقد لقي النثر حظًّا أَوْفَى في العصور المتأخرة من التاريخ الأندلسي، فقد ظهرت فيه إلى جانب الأشكال الأدبية المألوفة القصة الفلسفية مثل : قصة (حَيّ بن يَقْظَان) لابن طُفَيْل، ورسالة (التَّوَابِع والزَّوَابع) لابن شُهَيد.

من كُلِّ ذلك نلاحظ أن النثر الأندلسي يَتَّبعُ خطى النثر المشرقي في أشكاله وخصائص أسلوبه، وإن كانت موضوعاته مستمدة من طبيعة الحياة الأندلسية سياسية وثقافية وبيئية.

المناقشة :

١- كان النثر الأدبي في الأندلس خلال عصر الولاة مرتبطًا بظروف مرحلة الفتح. أوضحُ هذا القول، ثم أبيِّنُ خصائص النثر الأدبي في هذه الفترة.

٢- ما أنواع النثر في عصر الإمارة المستقلة؟ ولم اقتصر على تلك الأنواع فقط؟

٣- قال عبدالرحمن الداخل: «هذا اليوم هو أشد ما يبنى عليه إما ذل الدهر وإما عز الدهر فاصبروا فيما لا تشتهون، تربحوا بقية أعماركم فيما تشتهون».

أ - من أيِّ أنواع النثر الأدبي هذا النص؟ وما الغرض منه؟

ب - في النص بعض فنون البديع/ . أذكُرُها وأحدِّدُ مواضعها.

ج - أضبطُ هذا النصَّ بالشكل، ثُمَّ أشرحهُ شرحًا أدبيًّا يوضح معناه.

د - أعودُ إلى رسالة عبدالرحمن الداخل إلى أحد الخارجين عليه وأقرؤها، وأستخرج منها مايدل على خصائص النثر الأدبي في عصر الإمارة المستقلَّة.

٤- تأثر النثر الأدبي في عصر الخلافة بأسلوب كلٍّ من عبدالحميد الكاتب والجاحظ، فما مظاهر هذا التأثُّر؟ أوضِّحُ ذلك في ضوء النماذج السابقة.

٥- للنثر التأليفي نوعان، أذكرهما مع بيان الفرق بينهما، وما يتناوله كلٌّ منهما.

٦- من أيِّ نَوْعَي النثر التأليفي الكتب التالية: طوق الحمامة، الحدائق، العقد الفريد، المقتبس، قصة حي بن يقظان؟

نماذج من النثر الأندلسي

١ - وصف بعوضة لابن شهيد

النص :

«البَعُوضَةُ مُلَيْكَةٌ، لَا جَيْشَ لَهَا سِوَاهَا، تَحْقِرُهَا عَيْنُ مَنْ يَرَاهَا، تَمْشي إِلَى الملك بِنَدْبِهَا[١]، وَتَضْرِبُ فِي بُحْبُوحَةِ[٢] دَارِهِ بِطَبْلِهَا، تُؤْذِيهِ بِإِقْبَالِهَا، وَتُعَرِّفُهُ بِإِرَاقَةِ دَمِهِ مَالَهَا، فَتُعْجِزُ كَفَّهُ، وتُرْغِمُ أَنْفَهُ[٣]، وتُضَرِّجُ[٤] خَدَّه، وتَفْرِي لَحْمَهُ وَجِلْدَه. زَمْجرَتُهَا تَسْلِيمُهَا، وَرُمْحُهَا خُرْطُومُها، تُذَلِّلُ صَعْبَكَ إِنْ كُنْتَ ذَا قُوَّةٍ وَعَزْمٍ، وَتَسْفِكُ دَمَكَ وإِنْ كُنْتَ ذَا حِلْفٍ وَعَسْكَرٍ ضَخْمٍ، تَنْقُضُ العَزَائِمَ وَهِيَ مَنْقُوضَة، وتُعْجِزُ القَوِيَّ ،وَهِيَ بَعُوضَة، لِيُرِيَنَا اللَّهُ عَجَائِبَ قُدْرَتِهِ، وضَعْفَنَا عَنْ أَضْعَفِ خَلِيقَتِهِ».

التعريف بالكاتب :

هو أبو عامر أحمد بن أبي مروان بن شهيد، كاتب وشاعر، ولد في قرطبة عام ٣٨٢هـ، وعاش طفولة ناعمة مترفة، وتهيأت له أسباب العلم والثقافة، وحين أصبح شابًّا كان على اتصال ببعض الخلفاء الأندلسيين، ويقال إنه بلغ مرتبة الوزارة، فكثر حُسَّاده حتى دخل السجن، ولكن سرعان ما أُفرج عنه بسبب التقلُّبات السياسية، وقد مرض بالفالج في آخر حياته، وتوفي عام ٤٢٥هـ.

التعليق :

يصف ابن شُهَيْد في هذا النص بعوضة ويبالغ في وصفها، مُعتمدًا على عنصر التفخيم والتهويل، حتى لكأنه يصف حيوانًا مفترسًا، أو غولًا مرعبًا، فهي في نظره ملكة عظيمة الشأن، تكوِّن جيشًا بمفردها، مع احتقار الأعين لها، لعلَّه يشير هنا إلى قول الشاعر :

لا تَحْقِرَنَّ صغيرًا في مُخَاصَمَةٍ ... إنَّ البَعُوضَةَ تُدْمِي مُقْلَةَ الأَسَدِ

(١) الندب: أثر الجرح، وهو - أيضًا - بمعنى النداء.
(٢) بُحبُوحة الدار: وسطها، وتأتي بمعنى رغد العيش وسعته.
(٣) ترغم أنفه: تهينه وتذلّه قسرًا.
(٤) تضرَّج: تلطخ بالدم.

وهي كذلك فعلًا، إذ يجب الحذر منها وعدم الاستهانة بأمرها؛ ولأنها لا تبالي بأيِّ إنسان- ملكًا كان أو غيره- حيث تلحق به ألوانًا من الأذى لا يستطيع دفعها أو الفِكَاك منها.

ويستمرُّ ابن شهيد في سَرْد تلك الألوان إلى أن يصل إلى الغرض الذي من أجله وَصَف البعوضة، ألا وهو التفكُّر في مخلوقات اللَّه ومعرفة عجائب قدرته، وبالمقابل معرفة هَوَان الإنسان وعجزه، وضعفه عن أضعف تلك المخلوقات.

وقد لجأ ابن شهيد إلى الألفاظ الجزلة والتراكيب القوية، والتي تتناسب مع تفخيمه شأنَ البعوضة وتهويل أمرها، مما ساعده على إيصال فكرته في أحسن صورة، كما استعان ابن شهيد ببعض الصور الموحية كتشبيهه البعوضة بالملكة، وتشبيه صوتها بالزمجرة، وخرطومها بالرمح، إضافة إلى أنه صاغ أسلوبه بعبارات قصيرة، التزم فيها السجع التزامًا كاملًا من أولها إلى آخرها.

المناقشة :

١- جاء ذكر البعوضة في القرآن الكريم. أتلو الآية، وأبيِّنُ المراد من ذكر البعوضة فيها.

٢- ما مُكبَّر (مُلَيْكَة)؟ وماذا أفاد تصغيرها؟

٣- بِمَ شبَّه ابن شهيد البعوضة؟ وبمَ شبَّه خرطومها؟ أوضح رأيي في التشبيهين.

٤- صوَّر ابن شهيد ألوانًا من الأذى تُلْحقها البعوضة بالإنسان. فما أهم تلك الألوان؟

٥- ما الفنُّ البديعي الغالب على النص؟ وهل نجده عفويًّا أو متكلفًا؟

٦- ما غرض ابن شهيد من وصف البعوضة؟

٢ ـ من رسالة «التوابع والزوابع» لابن شهيد

النص:

«وَحضَرْتُ أَنا أَيْضًا وزُهَيْرٌ[١] مَجْلِسًا مِنْ مَجالِسِ الجن، فتَذاكَرْنا ما تَعاوَرَتْهُ[٢] الشُّعَراءُ مِنَ المَعاني، وَمَنْ زادَ فأَحْسَنَ الأَخْذ، وَمَنْ قصَّر، فأَنْشَدَ قَوْلَ الأَفْوه[٣] بَعْضُ مَنْ حضَر:

وَتَـرَى الـطَّيْرَ عَـلَى آثَـارِنَـا   رَأْيَ عَيْـــنٍ ثِقَـةً أنْ سَتُمَـارْ[٤]

وَأَنْشَدَ آخَرُ قَوْلَ النَّابِغَة:[٥]

إذا مَـا غَـزَوْا بالجَيْش حَلَّقَ فَوْقَهُمْ   عَصَـائِبُ طَيْـرٍ تَهْتَـدِي بعَصَائِبِ[٦]
جَـوَانِـحَ قَـدْ أَيْقَـنَّ أَنَّ قَبِيـلَـهُ   إِذَا مَـا الْتَقَى الجَيْشَانِ أَوَّلُ غَـالِبِ

وَأَنْشَدَ آخَرُ قَوْلَ أَبي نُوَاس:

تَـتَـأيَّا الـطَّيْـرُ غَـدْوَتَـهُ   ثِـقَـةً بِـالـشِّبْعِ مِـنْ جَـزَرِهْ[٧]

وَأَنْشَدَ آخَرُ قَوْلَ صَرِيع الغَوَاني[٨]:

قَدْ عَوَّدَ الطَّيْرَ عَـادَاتٍ وَثِقْنَ بِهَـا   فَـهُـنَّ يَتْبَـعْنَهُ فِي كُـلِّ مُـرْتَحَـلِ

وقد أَنْشَدَ آخَرُ قَوْلَ أَبي تَمَّام:

وَقَدْ ظُلِّلَتْ عُقْبَانُ أعْلَامِهِ ضُحًى   بِعِقْبَانِ طَيْرٍ فِي الدِّمَـاءِ نَـوَاهِلِ[٩]
أَقَامَـتْ مَعَ الـرَّايَاتِ حَتَّى كَـأَنَّهَا   مِنَ الجَيْـشِ إِلَّا أَنَّهَا لَـمْ تُقَـاتِلِ

---

(١) هو زهير بن نمير، جنيٌّ صاحَبَهُ ابن شهيد في رسالته لكي يزور أرض التوابع والزوابع.
(٢) تعاورته: تناولته.
(٣) الأفوه: هو الأفوه الأزدي شاعر جاهلي.
(٤) سَتُمَار: أي تعطى ميرتها من جثث القتلى.
(٥) النابغة: هو النابغة الذبياني الشاعر الجاهلي.
(٦) عصائب: جمع عصابة وهي الجماعة.
(٧) تتأيَّا: يقصد تنتظر. من جزره: أي مما يترك من لحوم القتلى فريسة لها.
(٨) صريع الغواني: هو الشاعر العباسي مُسْلِم بن الوليد.
(٩) العقبان في الشطر الأول هي: الرايات لعلوها وارتفاعها، والعقبان في الشطر الثاني: النسور. النواهل: التي تَرِدُ دماء الأعداء كما ترد الإبل الماء.

فَقَالَ سَمَرْدَلُ السَّحَابي[١]: كُلُّهُمْ قَصَّرَ عَنِ النَّابغَة؛ لأَنَّهُ زَادَ فِي المَعْنَى، وَدَلَّ عَلَى أَنَّ الطَّيْرَ إِنَّمَا أَكَلَتْ أَعْدَاءَ المَمْدُوح، وَكَلامُهُمْ كُلُّهُمْ مُشْتَرِكٌ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ضِدَّ مَا نَوَاهُ الشَّاعِرُ، وإِنْ كَانَ أَبُو تَمَّامٍ قَدْ زَادَ فِي المَعْنَى، وَإِنَّمَا المُحْسِنُ المُتَخَلِّصُ المُتَنَبِّي حيْثُ يَقُول:

لَـهُ عَسْكَرَا خَيْـلٍ وَطَيْـرٍ إِذَا رَمَـى ... بِهَا عَسْـكَرًا لَـمْ تبْقَ إِلَّا جَمَـاجِمُهُ[٢]

وَكَانَ بِالحَضْرَةِ فَتًى حَسَنُ البِزَّة[٣]، فَاحْتَدَّ لِقَوْلِ سَمَرْدَلَ فَقَال: الأَمْرُ عَلَى مَا ذَكَرْتَ يَاسَمَرْدل، وَلكِنْ مَا تَسْأَلُ الطَّيْرُ إِذَا شَبعَتْ أَيُّ القَبيلَتَيْنِ الغَالِب؟ وأَمَّا الطَّيْرُ الآخَرُ فَلا أَدْري لِأَيِّ مَعْنًى عَافَتِ الطَّيْرُ الجَمَاجِمَ دُونَ عِظَامِ السُّوقِ والأَذْرُعِ والفِقَارَاتِ وَالعَصَاعِص؟

وَلِكِنَّ الذي خَلَّصَ هَذَا المَعْنَى كُلَّهُ، وَزَادَ فيه، وأَحْسَنَ التَّرْكِيبَ وَدَلَّ بِلَفْظَةٍ وَاحِدَةٍ عَلَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ شِعْرُ النَّابغَةِ وَبَيْتُ المُتَنَبِّي مِنْ أَنَّ القَتْلَى التِي أَكَلَتْهَا الطَّيْرُ أَعدَاءُ المَمْدُوحِ هو فَاتِكُ بْنُ الصَّقْعَبِ[٤] فِي قَوْلِه:

وَتَـدْرِي سِبَـاعُ الطَّيْرِ أَنَّ كُمَاتَهُ ... إِذَا لَقِيَتْ صِيدَ الكُمَـاةِ سِبَاعُ[٥]
لَـهُنَّ لُـعَـابٌ فِـي الـهَوَاءِ وهِـزَّةٌ ... إِذَا جَدَّ بَيْنَ الدَّارِعِيـنَ قِـرَاعُ[٦]
تَطِـيرُ جِيَـاعًا فَوْقَـهُ وَتَرُدُّهَـا ... ظُبَاهُ إِلَى الأَوْكَـار وَهْـيَ شِبَـاعُ[٧]
تَمَلَّـكَ بِالإِحْسَـانِ ربْقَـةَ رِقِّـهَا ... فَهُـنَّ رَقِـيقٌ يُشْتَـرَى وَيُبَـاعُ[٨]
وأَلْحَـمَ مِـنْ أَفْرَاخِـهَا فَـهْيَ طَـوْعُـهُ ... لَـدَى كُـلِّ حَـرْبٍ والمُلُوكُ تُـطَاعُ[٩]
تُمَاصِـعُ جِـرْحَـاهَـا فَيُجْـهِزُ نَـقْـرُهَـا ... عَـلَيْهِـمْ وَلِلـطَّيْرِ الـعِتَاقِ مِصَـاعُ[١٠]

---

(١) شخصية من الجن.
(٢) بها: الضمير عائد إلى (خيل وطير) لا إلى (عسكرًا).
(٣) البزة: المظهر.
(٤) هو ابن شهيد نفسه.
(٥) الكماة: الفرسان. الصيد: جمع أصيد، وهو الرافع الرأس كبرًا.
(٦) الدارعين: المحاربين الذين يلبسون الدروع. قراع: مبارزة وقتال.
(٧) ظباه: أسنة الرماح. الأوكار: الأعشاش.
(٨) الربقة: القيد.
(٩) ألحم: أطعم اللحم.
(١٠) تماصع: تقاتل.

فَاهْتَزَّ المَجْلِسُ لِقَوْلِه وَعَلِمُوا صِدْقَه.

فَقُلْتُ لِزُهَيْر: مَنْ فَاتَكُ بْنُ الصَّقْعَب؟ قَالَ: يَعْنِي نَفْسَه، قُلْتُ لَهُ: فَهَلَّا عَرَّفْتَنِي شَأْنَهُ مُنْذُ حِين إِنِّي لأَرَى نَزَعَاتٍ كَرِيمَة، وَقُمْتُ فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ جِلْسَةَ المُعَظِّم لَه».

التعليق:

كان ابن شُهَيْد كثير الخصوم والحسَّاد، وكانوا لا يعترفون بأدبه ولا بنبوغه، لذلك أَلَّف رسالته تلك كي يناضل فيها عن أدبه، ويبسط فيها آراءه في الشعر والنثر والنقد، ويردَّ على أنداده ومنافسيه. وقد بنى رسالته على رحلة خيالية إلى وادي الجن (وادي عَبْقَر) بصحبة جنِّي اسمه زهير بن نمير من بني أشجع الجن، وهناك التقى بشياطينِ كثيرٍ من الشعراء والكتَّاب، وعرض عليهم بعض إنتاجه الأدبي، فنال منهم إجازة في النظم والنثر.

والرسالة مبْنية على ما كان شائعًا عند العرب من أن لكل شاعر مُعينًا من الجن، يَنْفُث الشعر على لسانه. والتابع في الرسالة الجنِّي والزوبعة الشيطان. وهي تتكون من مدخل تحدث فيه عن تعلُّمه وتأدُّبه، وكيف التقى بزهير بن نمير، الذي تراءى له بعد أن أُرْتِج[1] عليه، وألقى إليه بتمتمة الشعر، ونقله إلى وادي عبقر. ثم الفصل الأول وهو عن توابع الشعراء ومنهم توابع امرئ القيس وطرفة وأبي تمام والمتنبي، تلاه الفصل الثاني وهو عن توابع الكتاب، ومنهم توابع عبدالحميد والجاحظ وبديع الزمان، فالفصل الثالث وهو عن نُقَّاد الجن؛ وأخيرًا الفصل الرابع وهو عن حيوان الجن.

ويقع الجزء الذي اخترناه في الفصل الثالث، حيث يحضر ابن شهيد وتابعه مجلس أدب من مجالس الجن، فيدور الكلام حول بيت للنابغة الذبياني تداول الشعراء معناه من بعده ولم يَلْحقُوه، وينظم بعض الجن أبياتًا في هذا المعنى يتسامى بها على النابغة، وإنما هي من نظم ابن شهيد، والأبيات تظهر قدرة ابن شهيد النقدية، وفهمه للشعر القديم وطريقة الشعراء في أخذ المعاني والصور بعضهم عن بعض.

وأسلوب ابن شهيد في الرسالة أسلوب قوي، يدل على أنه قد جمع الإبداع في الشعر والنثر، وإن كان فيه شيء من التكلُّف والصناعة اللفظية، مما لا يظهر في الجزء الذي اخترناه.

---

(١) أُرتج عليه: استغلق عليه الكلام.

المناقشة:

١- ما الذي حمل ابن شهيد على تأليف رسالة «التوابع والزوابع»؟

٢- علام بُنيت فكرة هذه الرسالة؟

٣- تتكون الرسالة من أجزاء مُتعدِّدة. أذكُرُها بالتفصيل.

٤- في أي أجزاء الرسالة يقع المقطع الذي اخترناه؟ وما المعنى الذي تداوله الشعراء فيه؟ وأيُّهم أحْسَن؟ ولماذا؟

٥- هل يمكن أن نَعُدَّ هذه الرسالة من الرسائل النقدية في الأدب الأندلسي؟ أوضِّحُ ما أقول.

٦- أكتبُ قطعة أدبية، أحاكي فيها ابن شهيد، بحيث أتخيل نفسي في العصر العباسي وقد التقيت ببعض أدبائه، مع الاستعانة بما سبق أن حفظته من أدب ذلك العصر.

٣ - من الرسالة الهَزليَّة لابن زيدون

النص :

«أمَّا بَعْدُ: أيُّهَا المُصَابُ بعَقْله، المُورَّطُ بجَهْله، البَيِّنُ سقَطُه[١]، الفاحشُ غَلَطُه، العَاثر[٢] في ذَيْل اغْترَاره، الأعْمَى عَنْ شَمس نَهَاره، السَّاقِطُ سُقُوطَ الذُّبَاب عَلَى الشَّرَاب، المتهافِت تَهَافُتَ الفَرَاشِ في الشِّهَاب[٣]، فإنَّ العُجْبَ أكْذَب[٤]، ومَعْرفَةَ المرْءِ نَفْسَهُ أصْوَب...

وإنكَ رَاسَلْتَني مُستَهْدِيًا مِنْ صِلَتِي ماصَفِرتْ[٥] منْهُ أيْدي أمْثَالك، مُرْسلًا خَليلَتَكَ مُرْتَادَةً وقَدْ أعْذَرَتْ في السِّفارة لَك[٦]، ومَا قَصَّرَتْ في النِّيَابَةِ عَنْك، زَاعِمَةً أنَّ المرُوءَة لَفْظٌ أنْتَ[٧] معناه، والإنْسَانيَّة اسْمٌ أنتَ جِسْمُهُ وهَيُولَاه[٨]، قَاطعَةً[٩] أنكَ انْفَرَدْتَ بالجَمَال، واسْتَأثَرْتَ بالكَمَال، واسْتَعْلَيْتَ في مَرَاتِب الجَلَال، واسْتَوْلَيْتَ عَلَى مَحَاسِنِ الخِلَال، حتَّى خُيِّلْتَ أنَّ امْرأةَ العَزيز[١٠] رَأتْكَ فسَلَتْ عَنْه، وأنَّ قَارُونَ[١١] أصَابَ بَعْضَ ما كَنَزْتَ، والنَّطفَ[١٢] عَثَرَ عَلَى فَضْلِ مَارَكَزْتَ، وكِسْرَى حَمَلَ غَاشِيَتَك[١٣]، وقَيْصَرَ رَعَى مَاشِيَتَك، والإسْكَنْدَرَ قَتَلَ دَارًا[١٤] في طَاعَتِك، وبِلْقِيسَ[١٥] غَايَرَتِ الزَّبَّاءَ عَلَيْك، وأنَّ مَالِكَ بْنَ نُوَيْرَةَ[١٦] إنَّما أرْدَفَ[١٧] لَك...

---

(١) سقط القول: خطؤه.

(٢) العاثر: الساقط.

(٣) الشهاب: الشعلة من النار.

(٤) العُجْب: ما يُعْجب الإنسانَ من نفسه، ولذلك أخبر عنه بأنه أكذبُ، أي أنه يدعو المرْءَ إلى أن يتخيل مالا صحة له فيكذب نفسه.

(٥) صفرت: خَلَتْ.

(٦) أعذرت في السفارة: جهدت في الإصلاح.

(٧) أي ابن عبدوس.

(٨) هيولاه: مادتُه.

(٩) قاطعة: مؤكدة وجازمة.

(١٠) هي التي شغفها سيدنا يوسف عليه السلام حبًّا.

(١١) قارون: من قوم موسى، واشتهر بالثروة الطائلة.

(١٢) النطف: رجل من تميم نهب أموالًا لكسرى في الجاهلية فأثْرى.

(١٣) غاشيتك: ما يظللك أو من يغشاك من الناس.

(١٤) دارا: ملك الفرس في عهد الإسكندر وقد قتله.

(١٥) بلقيس: ملكة سبأ. والزَّباء: ملكة تدْمُر.

(١٦) من شجعان تميم في الجاهلية والإسلام، قُتل في حُروب الرِّدَّة.

(١٧) الرَّادفة: منزلة منحها المناذرةُ لبني يربوع، وهي أن يُختار أحدهُم ليكون مصاحبًا للملك ويجلس عن يمينه، ويأخذ مكانه إذا غاب في حرب أو غيرها.

وكُلَيْبَ بْنَ رَبيعَةَ(1) إنَّمَا حَمَى المَرْعَى بعِزَّتك، وجَسَّاسًا(2) إنما قتَلَهُ بأنَفَتك، ومُهَلهِلا(3) إنَّمَا طَلَبَ ثَأْرَهُ بهِمَّتك، والسَّمَوْأَل إنَّما وَفَى عَنْ عَهْدك، والأحنَفَ(4) إنَّمَا احْتَبَى(5) في بُرْدَتك، وَحاتمًا إنَّمَا جادَ بوَفْرِك(6)، ولَقِيَ الأضْيَافَ ببِشْرِك، وعَامرَ بْنَ مَالك(7) إنما لاعَبَ الأسِنَّةَ بيَدَيْك، وقَيْسَ بْنَ زُهَيْر(8) إنما اسْتَعَانَ بدَهَائك، وإيَاسَ بْنَ مُعَاوِيَةَ(9) إنَّمَا اسْتَضَاءَ بمِصْبَاحِ ذَكَائك، وسَحْبَانَ(10) إنما تَكَلَّمَ بلِسَانك...

وأنَّكَ لَوْشئْتَ خَرَقْتَ العَادَات، وخَالَفْتَ المَعْهُودَات، فَأَحَلْتَ البحَارَ عَذْبة، وأعَدْتَ السَّلامَ(11) رَطْبَة، ونَقَلْتَ غَدًا فَصَارَ أمْسًا، وزِدْتَ فِي العَنَاصِرِ فَكَانَتْ خَمْسًا، وأنَّكَ المَقُولُ فيه: كُلُّ الصَّيْدِ في جَوْفِ الفَرَا(12):

لَيْسَ عَلَى اللَّهِ بمُسْتَنْكَرٍ ... أنْ يَجْمَعَ العَالَمَ فِي وَاحِدِ(13)

والمعْنيُّ بِقَوْلِ أبِي تَمَّامٍ :

فَلَوْ صَوَّرْتَ نَفْسَكَ لَمْ تَزِدْهَا ... عَلَى مَا فِيكَ مِنْ كَرَمِ الطِّبَاعِ

والمرَادُ بِقَوْلِ أبِي الطَّيِّب :

ذُكِرَ الأنَامُ لَنَا فكَانَ قَصِيدَةً ... كُنْتَ البَدِيعَ الفَرْدَ مِنْ أبْيَاتِهَا

---

(1) سيد ربيعة من تغلب.
(2) جساس: هو قاتل كليْب.
(3) أخو كليب المتقدم ذكره.
(4) الأحنف: من تميم، ويُضرب به المثل في الحلم، وتُوفي سنة ٦٧هـ.
(5) احتبى بالثوب: جمع به بين ساقيه وظَهْرِه، وهي جلْسَةٌ للأعراب يَحْتبي الرئيس ويجلس حوله أهلُه.
(6) المال الكثير.
(7) جاهليّ عُرف بمُلاعب الأسنّة.
(8) من عبس وهو صاحب الحروب بين عبس وذبيان بسبب الفرسين داحس والغبراء، يُضرب به المثل فيقال: أدْهَى من قَيْس.
(9) ولي قضاء البصرة في عهد عمر بن عبدالعزيز وضُرب به المثل في الذكاء. وتوفي سنة ١٢١هـ.
(10) كان خطيبًا مُفَوَّهًا، يُضْرَبُ به المثلُ في البيان. مات سنة ٥٤هـ.
(11) الحجارة الصلبة.
(12) هذا مَثَلٌ يضرب للشيء المُرْبي على غيره، والفرا: حمار الوحش.
(13) البيت لأبي نُواس.

فكَدَمْتَ(١) في غَيْرِ مَكْدَم، واسْتَسْمَنْتَ ذا وَرَم(٢)، ونَفَخْتَ في غَيْرِ ضرَم، ولَمْ تَجدْ لِرِيحٍ مَهزًّا، ولا لِشَفْرَة مَحزًا، بَلْ رَضِيتَ مِنَ الغَنِيمَةِ بالإيَاب، وتَمَنَّيْتَ الرُّجُوعَ بِخُفَّيْ حُنَيْن، لأني قُلْتُ : لَقَدْ هَانَ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ،(٣) وأَنْشَدْتُ:

عَلَى أنَّهَا الأيَّامُ قَدْ صِرْنَ كُلُّها عَجَائِبَ حتَّى لَيْسَ فِيهَا عَجَائِبُ(٤)».

التعليق :

ابن زيدون أحد أكبر الأدباء الأندلسيين، وقد سبق الحديث عنه، إلا أن مايهمنا هنا هو أن نذكر أنه أحد الأدباء القلائل الذين اجتمعت لهم الإجادة والإحسان في فَنَّي الأدب : الشعر والنثر، ولا يكاد يجاريه في هذا الشأن سوى أبي عامر بن شهيد، ثم لسان الدين بن الخطيب.

وقد عرفنا أن ابن زيدون كتب هذه الرسالة على لسان ولّادة إلى ابن عَبْدُوس منافسه في حُبِّها، متهكِّمًا به ساخرًا منه سخرياتٍ لاذعة، وقد اسْتوْحى فكرتها من رسالة «التَّرْبيع والتَّدْوير» للجاحظ، التي سخر فيها من كاتب معاصر له يُسَمَّى أحمد بن عبدالوهاب كان يُكْثِر من ذمِّه، فوصفه بأنه مُربَّع مُدَوَّر، خلع عليه صورًا ساخرة من الجمال، وصورًا أخرى ساخرة من المعرفة، على شكل أسئلة في التاريخ والعلوم والفلسفة.. مع سؤاله عن أسماء كثيرين من الرجال عربًا وغير عرب في ميادين مختلفة. وكأنَّ ابن زيدون أراد أن يُجَاريه في رسالته، إذ مضى - على شَاكِلَتِه - يكثر من أسماء الرجال، وما يتَّصل بهم من أخبار، مع محاولته الواضحة في أن يكون لرسالته سِمَاتُها الخاصة، لا في طريقة عَرْضِه لأسماء الرجال فحسب، وإنما بالإكثار من ضَرْب الأمثال ونَثْر الأبيات، مما جعل الرسالة في حاجة شديدة إلى التعريف بما عدَّد فيها من الأعلام وأخبارهم، ومن الأمثال والأشعار المنثورة.

---

(١) الكَدْم: العَضُّ بأدْنَى الفم. المَكْدَمُ : مَوْضعُ العَضّ، وهو مَثَلٌ يُضْرَب لمنْ طلب شيئًا في غير مَطْلَبه.

(٢) الورم: انتفاخ.

(٣) هذا مَثَلٌ يُضْرَبُ لمنْ بلغ الغاية في الذل، وهو عَجزُ بيت لغاوي بن ظالم السُّلَميّ، أو للعبّاس بن مِرْداس السلميّ وصدره: أربٌّ يَبُولُ الثعلبان برأسه.

(٤) البيت لأبي تمام.

وقد بلغ ابن زيدون في هذه الرسالة الذِّرْوَة في السُّخرية من ابن عَبْدُوس، إذ أصبح في يده كَلُعْبَة، تارة يَعْلُو به فيرفعه إلى السماوات العُلْيَا في القوة والسلطان والعلوم والفلسفة والبيان، وتارة يسقط به فيهوي من القمة إلى الحضيض والدرك الأسفل.

ومن يطَّلعْ على الرسالة كاملة يلحظْ أنه حشد فيها كثيرًا من الأسماء التي يومئ بها إلى حوادث تاريخية وأحداث مختلفة، وشخصيات لها ذكر في التاريخ عند العرب أو غيرهم. وتنبئنا الرسالة بكثرة محفوظ ابن زيدون من روائع الأدب، وسعة ثقافته، وربما كان هذا هو غرضه الخفيّ الذي ألف من أجله رسالته. وتسيطر على ابن زيدون في قسم كبير منها نَزْعة إلى استخدام السجع والازدواج، وكثرة الصور الخيالية، وبخاصة أولها.



المناقشة:

١- ما غرض ابن زيدون من هذه الرسالة؟ وهل بلغ ما أراد؟
٢- ما الرسالة التي اسْتَوْحى ابن زيدون فكرته منها؟ وفِيمَ كان موضوعها؟ وبم تميَّز عنها؟
٣- ما الطريقة التي اتبعها ابن زيدون في السخرية من ابن عبدوس؟
٤- أوضِّحُ الأسلوب الغالب على الرسالة: الطبع أو التكلف.
٥- أكثر ابن زيدون في رسالته من الجمل المترادفة على معنى واحد. آتي من الرسالة بما يمثِّل هذا الترادف.
٦- قيل: إن رسالة ابن زيدون الهزلية جمعت أفانين التهكُّم وضروب المعرفة. أبيِّنُ ذلك.
٧- أستخرجُ من النص بعض العبارات التهكمية التي أعجبتني، وأبيِّنُ سبب إعجابي بها.

٤ - من الرسالة الجِدِّيَّة لابن زيدون

النص :

«يامَوْلَايَ وسَيِّدِي الذي وِدَادِي له، واعْتِدَادِي به، وامْتِدَادِي مِنه، أَبْقَاكَ اللَّهُ مَاضِيَ حَدِّ العَزْمِ، وَارِيَ زَنْدِ[١] الأمَلِ، ثَابِتَ عَهْدِ النِّعْمَة، إنْ سَلَبْتَنِي - أعزَّكَ اللَّهُ - لِبَاسَ نَعْمائك، وعَطَّلتَنِي من حَلْيِ إيناسِك، وأظْمَأْتَنِي إلى بَرُودِ[٢] إسْعَافِك، ونَفضْتَ بي كَفَّ حِياطَتِك[٣] ،وَغَضَضْتَ عنِّي طَرْفَ حِمَايَتِك بَعْدَ أنْ نَظَرَ الأعْمَى إلى تَأْمِيلِي لَك، وسَمِعَ الأَصَمُّ ثَنَائِي عَلَيْك، وأحَسَّ الجَمَادُ باستِحْمَادِي[٤] إلَيْك، فلا غَرْوَ قَدْ يَغَصُّ بالماءِ شَارِبُه، وَيَقْتُلُ الدَّوَاءُ المُسْتَشْفِيَ به، ويُؤْتَى الحَذِرُ مِنْ مَأْمَنِه[٥]، وتَكُونُ مَنِيَّةُ المُتَمَنِّي في أُمْنِيَّتِه، والحَيْنُ قَدْ يَسْبِقُ جَهْدَ الحَرِيص[٦].

كُلُّ المَصَائِبِ قَدْ تَمُرُّ عَلَى الفَتَى   وَتَهُونُ غَيْرَ شَمَاتَةِ الحُسَّادِ

وإنِّي لأَتَجَلَّدُ وأُرِي الشَّامِتِينَ أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لا أَتَضَعْضَعُ[٧]، فأقُولُ[٨]: هَلْ أَنَا إلَّا يَدٌ أَدْمَاهَا سِوَارُهَا، وجَبِينٌ عَضَّهُ إِكْلِيلُه[٩]، وَمَشْرَفِيٌّ[١٠] أَلْصَقَهُ بالأَرْضِ صَاقِلُهُ، وَسَمْهَرِيٌّ[١١] عَرَضَهُ عَلَى النَّارِ مُثَقِّفُه[١٢]، وعَبْدٌ ذَهَبَ بِهِ سَيِّدُهُ مَذْهَبَ الذي يَقُول:

فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِمًا   فَلْيَقْسُ أَحْيَانًا عَلَى مَنْ يَرْحَمُ[١٣]

---

(١) الزند الواري: الحجر الجيد الذي تخرج منه النار. (٢) برود: بارد. (٣) كناية عن عدم عنايته به.

(٤) استحماده: طلب حمده. (٥) مَثَلٌ. (٦) الحَيْنُ: الموت، وهو مَثَلٌ مشهور.

(٧) جزء من بيت لأبي ذؤيب الهذلي:

وتجلُّدي للشامتين أُرِيهُمُ   أني لِرَيْبِ الدهر لا أتضعضعُ

(٨) بدأ هنا يُسَرِّي عن نفسه بضرب الأمثال. (٩) الإكليل: التاج. (١٠) المشرفيّ: السيف.

(١١) السَّمْهريّ: الرمح. (١٢) مثقفه: صاقله وصانعه. (١٣) البيت لأبي تمام.

هَذَا العَتْبُ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُه[١]، وهَذِهِ النَّبْوَةُ غَمْرةٌ[٢] ثُمَّ تَنْجَلِي، وهَذِهِ النَّكْبَةُ سَحَابَةُ صَيْفٍ عَنْ قَلِيلٍ تَقَشَّعُ[٣]، ولَنْ يَرِيبَنِي مِنْ سَيِّدِي أنْ أَبْطَأَ سَيْبُه[٤]، أو تَأَخَّر - غَيْرَ ضَنِينٍ - غَنَاؤه[٥]، فَأَبْطَأُ الدِّلَاءِ فَيْضًا أَمْلَؤُها[٦]، وأَثْقَلُ السَّحَائِبِ مَشْيًا أَحْفَلُهَا[٧]، وأَلَذُّ الشَّرَابِ مَا أَصَابَ غَلِيلا[٨]، ومَعَ اليَوْمِ غَد، ولِكُلِّ أَجَلٍ كِتَاب، لَهُ الحَمْدُ على اهْتِبَالِه[٩]، ولا عَتْبَ عَلَيْه في إغْفَالِه:

فَإِنْ يَكُنِ الفِعْلُ الذِي سَاءَ وَاحِدًا ... فَأَفْعَالُهُ اللَّائِي سَرَرْنَ أُلُوفُ[١٠]

فَكَيْفَ ولا ذَنْبَ لِي إلَّا نَمِيمةٌ أَهْدَاهَا لي كَاشِح[١١]، ونبأٌ جَاءَ بِهِ فَاسِق، وهُمُ الهَمَّازُونَ المَشَّاؤون بِنَمِيم[١٢]، والوَاشُونَ الذِينَ لا يَلْبَثُونَ أَنْ يَصْدَعُوا العَصَا[١٣]، والغُوَاةُ الذِينَ لَا يَتْرُكُونَ أَدِيمًا[١٤] صَحِيحًا، والسُّعَاةُ الذِينَ ذَكَرَهُمُ الأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ فَقَالَ: ما ظَنُّكَ بِقَوْمِ الصِّدْقُ مَحْمُودٌ إلا مِنْهُمْ؟

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً ... وَلَيْسَ وَرَاءَ اللَّهِ لِلْمَرءِ مَذْهَبُ[١٥]

---

(١) مأخوذ من قول الشاعر المتنبي:

لَعَلَّ عَتْبَكَ مَحْمُودٌ عواقبهُ ... وربما صحّت الأجسامُ بالعلَلِ

(٢) الغَمْرة: الشدة، وهذا مثل يضرب لليُسْر بعْد العُسْر. تنجلي: تذهب.

(٣) مثل آخر بنفس المعنى. تقشَّعُ: تكشَّف.

(٤) السَّيْبُ: العَطاءُ.

(٥) الغناء: المال والنفع.

(٦) مَثَلٌ.

(٧) أحْفلُها: أملؤها.

(٨) الغليل: شدة العطش.

(٩) الاهتبال: الاهتمام وإتاحة الفرصة.

(١٠) البيت للمتنبي.

(١١) كاشح: عدو.

(١٢) الهمَّاز: من الهمز وهو الغيبة، والمشاؤون بنميم: الساعون بالنميمة.

(١٣) كناية عن التفريق.

(١٤) الأديم: الجلد، كناية عن الشخص كله.

(١٥) بيت النابغة الذبياني يعتذر فيه إلى النعمان بن المنذر.

التعليق:

عرفنا فيما سبق أن ابن زيدون قد أرسل بهذه الرسالة- وهو في الأَصْفَاد رهين مَحْبِسه- إلى أبي الحزم بن جَهْوَر، عَلّهُ يُطلق سراحه، فلا عجب أن يسيطر على نَفْس صاحبها الانفعال الحادّ وقد حُرِم أكبرَ نعمة يُحْرَم منها الإنسان، فيُسطّرُ تلك الرسالة والاضطرابُ والقلقُ يَرينُ على قلبه الجريح، ولذلك يفتتحها باستعطاف أبي الحزم متأدّبًا في خطابه، عَلّه يمسُّ رحمته وعطفه، وقد أخذ يُثْني عليه، ويعلّل نفسه بالآمال في العفو عنه، ثم انتقل إلى وصف ذنبه مُحاولًا أن يعدّد ذنوبًا كثيرة مشهورة تُعدُّ من كبار الجرائر، وكأنه يَذْكُرها لكي يدلَّ على هَوان خطيئته، فيغفرها له.

وما يلبث أن يَتَنَصَّل من جريرته، فما هي- في رأيه- إلا نميمة نفثها كاشح، ووشايةٌ بَثَّها كاذب، واستطرد فذكّره أنه من شِيعته، فمثْلُه ينبغي أن يدركه أبو الحزم حين تلمّ به حادثة أو تنزل به كارثة، فهو شاعره الذي يَنْظِم فيه روائع مدحه، وإنه ليستعيذ به أن يكون كالذُّبالة المنصوبة تُضيءُ للناس وتحترق.

وهنا تثور نفسه، فيعلن أنه لا يَصْبرُ على الذل والهوان، ويُلمح بأنه يستطيع مفارقة الوطن الذي ينكره إلى حيث يجد من يضاحكونه، ثم أخذت ثورته تهدأ، فعاد إلى صوابه ومحبة وطنه، وأعلن أنه لا يُؤْثرُ عليه وطنًا غيره، كما أعلن أنه لا يختار على أبي الحزم ملكًا آخر من ملوك عصره، وانتقل بعد ذلك إلى استعطافه والمبالغة في تملُّقه حتى يعفوَ عن جنايته، وذيَّل الرسالة بقصيدة في مدحه واستذلال نفسه له، وطلب العفو والغفران منه.

تلك هي الرسالة التي اجْتَزَأْنَا منها هذا القدر الذي قدّمناه لك، فنلحظ أنه لم يترك حِيلة يحتال بها إلا لجأ إليها لكي ينالَ مأربه، ويصل إلى تحقيق أمله الكبير، وهو أن يخرج من ظلام السجن إلى نور الحرية.

والرسالة- كسابقتها- تمتلئ بذكر الأحداث والأعلام التاريخية، كما تمتلئ بذكر الأمثال، تتخلَّلُ ذلك عبارات من الشعر والنثر القديم، وهي تحتوي أيضًا على عبارات مقتبَسَة من القرآن الكريم،

ويحرص ابن زيدون على اللفظ الجزل الرصين، ويميل في بعض أجزاء الرسالة -وبخاصة مُفْتَتَحُها- إلى السجع، وإلى التقسيم الموسيقي المتوازن (الازدواج)، ولكنه في أغلبه يَنْطَلِق قلمه فيستخدم الأسلوب المُرْسَل، مُتَّكئًا على فَيْض من تلك الجمل التي يقتبسها من غيره في مهارة، فيمزجها بكلامه مزجًا، ويظهر في رسالته تأثره بأسلوب الجاحظ، من حيث توازن الجمل، والميل إلى الترادف، واستخدام الجمل الاعتراضية.

وقد كشفت لنا هذه الرسالة عن نفسية ابن زيدون، وأنه لم يضعف في السجن، بل ظَلَّ معتزًّا بمكانته وأدبه، متَّسِمًا بما له من كبرياء وعزَّة وأنفة، كما هو الحال في قصائد المدح والاستعطاف التي نظمها قبل هذه الرسالة.

المنـاقشـة :

١- ظلَّ ابن زيدون يستعطف أبا الحزم بقصائد عديدة، ثم دبَّج له هذه الرسالة الرائعة. فما السبب الذي دعاه إلى أن يبدأ استعطافه بالشعر، ثم يتحوَّل عنه إلى النثر؟

٢- ما الخطوات التي اتَّبعها ابن زيدون في تكوين رسالته؟ وهل وُفِّق في ترتيب أفكاره ؟ ولماذا؟

٣- ما الخصائص الأسلوبية التي تتميَّز بها هذه الرسالة؟ وفيم يظهر تأثُّره بأسلوب الجاحظ؟ أمثلُ لما أقول.

٤- أيهما أكثر تأثيرًا رسالة ابن زيدون الهزلية أم الجدية؟ ولماذا؟

٥- أكتبُ رسالة إلى أحد أقاربي أعتذر فيها عن خطأ وقعت فيه، مع محاكاة الرسالة التي أمامي.

٦- أستخرجُ من النص بعض الأمثال، وأبيِّنُ لمن تُضْرب.

٥ - آدابُ مجالسِ العلمِ لابنِ حَزْم

النص:

«إذَا حضرْتَ مَجْلسَ العِلْم فَلا يَكُنْ حُضورُكَ إلَّا حُضورَ مُستزيدٍ علْمًا وَأجْرًا، لا حُضورَ مُسْتغْنٍ بمَا عنْدَكَ، طَالبًا عثْرَةً تُشيعُهَا، أوْ غَريبَةً تُشَنِّعُهَا، فَهذهِ أفْعَالُ الأرَاذلِ الذينَ لا يُفْلحُونَ فِي العلمِ أبدًا، فَإذَا حَضرْتَهَا عَلى هَذهِ النِّيَّةِ فَجُلوسُكَ فِي مَنْزلكَ أرْوحُ لبَدَنك، وَأكْرَمُ لخُلُقك، وَأسْلَمُ لِدينِك.

فإذَا حَضرْتَهَا كَمَا ذَكرْنَا فالْتزمْ أحَدَ ثَلاثَةِ أوْجُهٍ لَا رَابعَ لَهَا وَهِيَ:

إمَّا أنْ تَسْكُتَ سُكُوتَ الجُهَّالِ فَتحْصُلَ عَلَى أجْرِ النيَّةِ فِي المشَاهَدَةِ، وعَلى الثَّناءِ عَليْكَ بِقلَّةِ الفُضُولِ، وعَلى كَرَمِ المجَالَسَةِ، وَمَوَدَّةِ مَنْ تُجَالِسُ.

فَإنْ لَمْ تَفْعَلْ ذَلكَ فَاسْألْ سُؤَالَ المتَعَلِّم، فَتَحْصُلَ عَلَى هَذهِ الأرْبعِ مَحَاسنَ، وعَلَى خَامسَةٍ وَهِيَ اسْتزادَةُ العِلْم. وصِفَةُ سُؤَالِ المتَعَلِّمِ أنْ تَسْألَ عَمَّا لا تَدْري، لَا عَمَّا تَدْري، فَإنَّ السُّؤالَ عَمَّا تَدْريه سُخْفٌ وقِلَّةُ عَقْلٍ.. فإنْ أجَابَكَ الذِي سَألْتَ بمَا فِيه كِفَايَةٌ لَكَ فَاقْطَعِ الكَلامَ، وإنْ لَمْ يُجبْكَ بمَا فيهِ كفَايَةٌ، أوْ أجَابَكَ بمَا لَمْ تَفْهَمْ فَقُلْ لَهُ: لَمْ أفْهَمْ، وَاسْتزدْهُ، فَإنْ لَمْ يزدْكَ بيَانًا وَسَكَتَ، أوْ أعَادَ عَلَيْكَ الكَلامَ الأوَّلَ وَلَا مَزيدَ، فامْسكْ عَنْهُ، وإلَّا حَصلْتَ عَلَى الشَّرِّ والعَداوَةِ، وَلَمْ تَحْصُلْ عَلَى مَا تُريدُ منَ الزِّيَادَة.

والوجه الثَّالثُ أن تُرَاجعَ مُرَاجَعَةَ العَالم، وَصفَةُ ذَلكَ أَنْ تُعَارضَ جَوابَهُ بمَا يَنْقُضُهُ نَقْضًا بيِّنًا، فَإنْ لَمْ يَكُنْ ذَلكَ عنْدكَ، وَلَمْ يَكُنْ عندَكَ إلَّا تكْرَارُ قوْلكَ، أو المعَارَضَة بمَا لَا يَرَاهُ خَصمُكَ مُعَارَضَةً فَأمْسكْ، فإنَّكَ لَا تَحْصُلُ بتكْرَارِ ذَلكَ عَلى أجْرِ ذَلكَ، وَلا عَلَى تَعْليمٍ، ولَا عَلَى تعَلُّمٍ، بَلْ عَلَى الغَيْظِ لَكَ وَلخَصْمكَ، والعَداوَةِ التي رُبَّما أدَّتْ إلَى المضَرَّاتِ، وإيَّاكَ وَسُؤالَ المُعْنتِ[١]، وَمُرَاجعَةَ المكَابِرِ،

(١) المعنت: المعتدُّ برأيه.

الذِي يَطْلُبُ الغَلَبَةَ بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَهُمَا خُلُقَا سُوءٍ، وَدَلِيْلانِ عَلَى قِلَّةِ الدِّينِ، وَكَثْرَةِ الفُضُولِ، وَضَعْفِ العَقْلِ، وَقُوَّةِ السُّخْفِ، وحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ».

التعريف بالكاتب :

ابن حزم هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري عالم الأندلس في عصره، وأحد أئمة الإسلام، وُلد في قرطبة عام ٣٨٤هـ. كان حافظًا عالمًا بعلوم الدين، مستنبطًا للأحكام، متفننًا في علوم كثيرة. كما كان متواضعًا ذا فضائل جمة، ومؤلفات كثيرة، وهو إلى جانب ذلك أديب شاعر مشهود له بالجودة والإحسان، وقد توفي عام ٤٥٦هـ بعد حياة حافلة بالعلم والتأليف. وقد سبق ذكر بعض مؤلفاته.

التعليـــق :

النصُّ الذي أمامنا مأخوذ من كتاب من كتب ابن حزم وهو بعنوان :«الأخلاق والسير في مداواة النفوس»، وهو كما يبدو من العنوان يتناول الأمور التي فيها تهذيب للنفوس، وإصلاح للأخلاق.

وهذه الوصية ذات أهمية كبرى لطلاب العلم، ولا سيَّما طلاب المدارس في الوقت الحاضر إذ إنها تَرْسُم لهم الطريق السليم الذي يجب أن يسلكوه في حضور مجالس العلم، وفي التعامل مع معلميهم وأساتذتهم، حتى يَتَسَنَّى لهم الحصول على الخير الوفير والعلم النافع.

وهي وصية في غاية الصدق والتأثير؛ لأنها صادرة عن عالم جليل أفنى عمره في تعليم الناس وإرشادهم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، وإذًا فهي وليدة خبراتٍ وتجارب مرَّ بها ابن حزم في سنوات طويلة.

وأبرز ما يميِّز هذه الوصية الوضوح المشرق الذي اتَّسَمَتْ به؛ لأن ابن حزم يهدف من ورائها إلى التعليم والتوجيه، ولن يبلغ حاجته بغير الوضوح الساطع والإشراق الوضيء، ومن ثم جاء أسلوبه ناصعًا، متسلسل الأفكار، خاليًا من الصعوبة والتعقيد والتكلُّف.

المناقشة :

١- أكتبُ تعريفًا موجزًا بابن حزم، مع ذكر أبرز مؤلفاته.

٢- من أي كتب ابن حزم أخذ هذا النص؟ وماذا يتناول هذا الكتاب؟

٣- ما النصيحة التي ابتدأ بها ابن حزم في توجيه طلاب العلم؟

٤- لا يخلو طالب العلم- وهو في مجلس العلم- من ثلاث حالات. أذكرُها إجمالًا.

٥- إذا أردت أن أسأل سؤالًا؛ فما الآداب التي يجب أن أتحلى بها؟

٦- لماذا كانت هذه الوصية غاية في الصدق وقوة التأثير؟ وما أبرز ما يتميز به أسلوبها؟

عصر الدول المتتابعة

الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية

١- الحياة السياسية:

مَرَّت الدولة العباسية بعد القرن الرابع بسلسلة من عهود الضعف والتفكُّك؛ لانقسام الدولة إلى عدد من الدُّويْلات في أنحاء البلاد الإسلامية. ويرجع ذلك الضعف إلى أسباب عدة- فضلًا عن الانقسام- منها السياسي والاجتماعي والمذهبي.

وقد وجدت الأمة العربية والإسلامية نفسها فجأة أمام أحداث عظام لم تُطِق الصمود أمامها، وتمثَّل في الغزو الصليبي القادم من الغرب، والاجتياح المغُولي القادم من الشرق. وإذا كان قد تمَّ الصمود للغزو الصليبي فإنه لم يستطعْ شيءٌ الوقوفَ في وجه جموع التتار الحاشدة التي اجتاحت الشرق الإسلامي فتساقطت دُوَلُهُ واحدة إثر الأخرى، حتى سقطت بغداد سنة ٦٥٦هـ.

وعندها بدأ عصر جديد يُسمَّى بـ«عصر الدول المتتابعة»(١)، وهو عصر طويل جدًّا قامت فيه دول كثيرة أشهرها دولة المماليك (٦٦٦هـ-٩٢٣هـ) والدولة العثمانية (٩٢٣هـ-١٢١٣هـ). وانقسم فيه العالم الإسلامي إلى قسمين: القسم الشرقي وهو العراق وما وراءه من الشرق، وقد أصبح ولاية مغولية، والقسم الغربي وهو مصر والشام وقد احتفظ باستقلاله ودافع عنه المماليك دفاعًا مستميتًا بقيادة الملك قُطْز. حيث صمدوا للغزاة التتار، وهزموهم شر هزيمة في موقعة «عين جالوت» المشهورة. وكان للمماليك دولهم المتعدِّدة كدولة المماليك البحرية، ودولة المماليك البرجية أو الشراكسة.

---

(١) ويُسَمَّى أيضًا «عصر الانحطاط» وهي تسمية فيها شيء من الجور؛ لأنها إن صحت على بعض الجوانب كالجانب السياسي والاجتماعي، فإنها لا يمكن أن تصح على الجانب الفكري كما ستعرف.

وقد آل الحكم بعد المماليك إلى الأتراك العثمانيين سنة ٩٢٣هـ، الذين أقاموا خلافتهم في عاصمتهم القسطنطينية، وقد حكموا البلاد العربية بالقوة، وجعلوا اللغة التركية لغة البلاد الرسميَّة، فلم يكن للعربية ولا لأهلها أيُّ دور في الحياة، إذ صارت اللغة إلى مستوى مُتَدَنٍّ للغاية، كما صار العرب أنفسهم إلى الذُّلِّ، فطال عليهم الخمول، وخيَّم عليهم الظلام ومهما قيل في الدولة العثمانية فحسبنا موقف السلطان عبدالحميد في الإصلاحات، وموقفه بالذات من القضية الفلسطينية، فهو موقف سجَّله التاريخ بأحرف من نور. والسلطان عبدالحميد هو صاحب شعار: «يامسلمي العالم اتحدوا» وبذلك أبرز فكرة «الجامعة الإسلامية»، ولم يستيقظ العرب إلا على مدافع حملة الجنرال الفرنسي «نابليون» سنة ١٢١٣هـ المؤذنة ببداية عصر النهضة الحديث(١).

٢ - الحياة الاجتماعية:

أدَّى اختلاط العرب بغيرهم من العناصر الأخرى، وتوالي النكبات من حروب وأوبئة ومجاعات إلى ظهور ألوان البِدَع والمفاسد الاجتماعية التي تُرْتَكب جهارًا لضَعْفِ الوازع الديني. كما دخلت الدينَ بعضُ البدع وما ابْتَكَرَتْهُ من ضروب الشَّعْوَذَة والدَّجَل، وما غَرَسَتْه في النفوس من مَيْل إلى الاتكال وغيره من مظاهر السلبية والضعف، عدا ما أسستْ من الاعتقاد في الأولياء والصالحين، وزيارة القبور والتوسُّل بها.

كذلك انتشر الاعتقاد في التنجيم والرجم بالغيب، وكل ذلك بسبب قَلَقِ النفوس، لكثرة ما انْتَابَ الناس من المحن والنكبات وتقلُّب الزمان.

وشاعت الرفاهية والترف من تأنق في الملبس والمطعم والمشرب، ومن افتنان في ضروب الملاهي، حيث عُمِرت قصور الملوك وعِلْيَة القوم بأنواع الترف كإحياء الليالي بالموسيقى والغناء.

---

(١) يبدأ عصر الدول المتتابعة سنة ٦٥٦هـ وينتهي سنة ١٢١٣هـ وهو تقسيم يأخذ بعين الاعتبار الأحداث السياسية فحسب، أما على الصعيد الأدبي والحضاري فإنه يمتد بين أوائل القرن السادس وأواخر القرن الحادي عشر.

وقد كانت للمماليك ملاهيهم وملاعبهم، فكانوا يُجْرُون الخيول في حلبات السِّباق، ويلعبون بالكرة والصَّوْلَجَان وغيرها من ألعاب الفروسية، كما كانوا يكثرون من الخروج للصيد في البراري وحول البحيرات، ويصحبون معهم الخدم والأعوان، ويُخَيِّمُون الأيام والليالي.

وكان عامَّةُ الناس يقصدون الأماكن النَّزِهَة للفُرْجَة واللهو، وينتهزون فرص الأعياد والمناسبات لإقامة الأفراح.

وأخيرًا فقد قام النظام الاجتماعي في هذا العصر على أساس الإقطاع العسكري (الطبقي) الشبيه بالنظام الإقطاعي في أوروبا في العصور الوسطى.

٣ - الحياة الفكرية :

غَلَب في هذا العصر ومنذ القرن الخامس مذهبُ أهل السنة والجماعة، وكان المماليك من أتباع السنة المؤمنين، فشجَّعوا على الأخذ بأسباب الدين القَوِيم، ورعاية القرآن، والوقوف على خدمة الحديث، وكان من مظاهر اهتمامهم بمذهب أهل السنة بناؤهم للمدارس ودُورِ العلم في عواصم البلاد العربية كالقاهرة ودمشق وبيت المقدس، حتى لقد بلغ عددها في دمشق وحدها سبعًا وخمسين ومئة مدرسة. كما اهتموا بالكتب والمكتبات العامة والخاصة التي تُلْحق بالمساجد الكبرى والمدارس، أو تُبْنَى لها دور خاصة كدار الكتب بآمِد وكانت تَضُمُّ مليونًا وأربعين ألفَ كتاب.

وقد شجَّع الحكام العلم والعلماء والطلاب، فكانت تُجْرَى عليهم الرواتب وتُقَدَّم لهم الهدايا في المناسبات المختلفة. كما كانت رحلات العلماء من أطراف العالم الإسلامي تَتِمُّ في دورات بين مُخْتَلِف مُدُنِه، حيث تُقَام لهم الأماكن للإقامة والالتقاء بعلماء ذلك البلد.

وقد كثرت حَوَاضِر العلم، حيث أصبحت القاهرة ودمشق قُطْبَيْن للحركة الفكرية والثقافية، كما كان لمكة والمدينة دورٌ خاص في الحياة الدينية والثقافية، فإن رحلة الحج تقتضي من بعض العلماء البقاء زمنًا مُجَاوِرًا بالحرم المكِّيِّ أو المسجد النبويِّ، يلتقي بجماعة من العلماء جاؤوا حاجين، فجاوروا مُفِيدِين أو مستفيدين.

ونتيجة لهذه العوامل جميعًا نشط العلم بفروعه المختلفة، وخاصَّة العلوم الإسلامية: كالقرآن وعلومه من تفسير وقراءات، والحديث وعلومه من جمع وأصول ورجال، والفقه على المذاهب الأربعة، واللغة، والنحو، والأدب، فضلًا عن العلوم العقلية والنقلية، كالفلسفة، والمنطق، والطب، والفيزياء، والجغرافيا، والتاريخ... وقد نبغ في كلِّ واحد من هذه العلوم جماعة من المشاهير المقدّمين والأئمة المبرِّزين، الذين يُعَدّون بحَقٍّ سُرُجَ هذه الأمة وفخر ثقافتها.

وقد نشطت حركة التأليف في هذا العصر نشاطًا عظيمًا، وعُرف بأنه عصر الموسوعات[1] العظيمة، وكان لِمَا ضاع من تراث العرب والمسلمين في نكبة بغداد على أيدي التتار أثرُه الكبير في حرص العلماء على جمع أشْتَات العلوم العربية والإسلامية في موسوعات ضخمة، حتى لا تتعرض كتبها المفرَّقة للضياع مرة أخرى.

ومن تلك الموسوعات (لِسَانُ العَرَب) لابن منظور (المتوفى سنة ٧١١هـ) وهو من أكبر المعاجم العربية وأشملها، وقد جمع فيه مؤلفه عددًا من معاجم اللغة، ورتَّب موادَّه بأن جعل الحروف الأخيرة أبوابًا، والأولى فصولًا مع ترتيبها وفق الترتيب (الألفبائي). ومنها (نِهَايَةُ الأرَب في فُنُون الأدَب) للنُّوَيْرِي (المتوفى سنة ٧٣٢هـ) وهو موسوعة أدبية تاريخية تجمع طائفة ضخمة من المعرفة في هذين العِلْمين وغيرهما مما يضمُّه كتاب بمفرده، ويُعنى بالأدب مفهومُه الواسع أي: ضُرُوب المعرفة التي يتأدَّب بها الإنسان. ومنها (صُبْحُ الأعْشَى في صِنَاعَةِ الإنْشَا) للْقَلْقَشَنْدي (المتوفى سنة ٨٢١هـ) وهو كتاب يُعَدُّ دائرة معارف فيما يتَّصل بديوان الإنشاء ونُظُم الحكْم ورسومه في الدول الإسلامية، إلى جانب فائدته الأدبية، وما ضمَّه من حديث عن أصول الكتابة وفنون القول.

ومن تلك الموسوعات أيضًا (مَسَالِكُ الأبْصَار) للعُمَري، و(حَيَاةُ الحَيَوَان) للدُّمَيْري، و(الْمُسْتَطَرفُ في كلِّ فَنٍّ مُسْتَظْرَف) للأبْشِيهي، وغيرها من المؤلفات التي تدلُّ على يقظة قوية، واهتمام كبير بالتأليف.

---

(١) الموسوعة أو (دائرة المعارف): كتاب ضخم يتضمَّن بيانًا عن كلِّ فروع المعرفة ويرتَّب حسب أسلوب منهجي. وقد تضيق الموسوعة فتختصُّ بعلم أو فنٍّ معين.

الأدب في عصر الدول المتتابعة

نظرة إجمالية :

إذا أَمْعَنَّا النظر في أدب هذا العصر بشيء من الإحاطة وجدناه تخلَّف في جوانب وتقدَّم في جوانب أخرى، وعلينا أن نَعِيَ قبل الحكم على أدب العصر أن الأدب ليس بمعناه الضيِّق الذي اعتدنا عليه، مجرد الشعر والنثر الفني المتمثِّل في أشكال الخطابة والرسائل والمقامات وما شاكلها، وإنما ينبغي توسيع دائرة الأدب- كما هو الحال في آداب الأمم الأخرى- لِتَضُمَّ جوانب من الإبداع الكتابي الذي أداته الكلمة. فيمكن عندئذ أن يدخل فيه عناصر من التاريخ والقصص وكتب الرحلات والمذكرات والسِّيَر. وإذا صار الأمر إلى ذلك فإن أدب العصر يكون أدبًا غنيًّا تنوَّعت فيه الأشكال الأدبية، وافتنَّ الأدباء وابتكروا فلم يجمدوا ولم يتخلَّفوا.

والمدخل الصحيح لفهم هذا الأدب والحكم عليه هو وضعه في إطار عصره والظروف الاجتماعية والفكرية التي أحاطت به، ولقد قدَّمنا الحديث عن هذه الظروف وبقي أن نربط بينها وبين الأدب. وأبرز ما يَسْتَرْعي الانتباه ذلك البُعْدُ والزمن الذي يفصل بين أدب الصدر الأول في عصر الجاهلية وصدر الإسلام وبني أمية، وأدب هذا العصر، قرون طويلة حدثت فيها تغييرات كبرى في الحياة واللغة والأدب كما عرفت سابقًا.

وكان ما أصاب الأدب من التغيُّر- في هذا العصر- يمسُّ جوانبه الفنية واللغوية على حد سواء، وقد أشار الباحثون في أدب العصر إلى ثِقَل وَطْأة البديع على الأدب شعره ونثره، والاهتمام بالشكل أكثر من المضمون، وإلى التحرُّر- أحيانًا- من قيود الفصحى باستخدام بعض الألفاظ والتراكيب العامية، فضلًا عن بعض الألفاظ الأجنبية، وكان أدباء العصر يَرَوْن في صَنْعَة البديع حسنًا، وفي رِقَّة الأساليب ودخول بعض العامية جمالًا يصادف هوًى في نفوسهم.

وحَرَصَ الأدباء عامة على الاستعانة بالتراث العربي والإسلامي في أدبهم، فكان القرآن الكريم في طَليعة الكتب التي حَرَصوا على التزوُّد منها، وكذا كان الشأن في الحديث الشريف والأدب القديم.

وقد تعدَّدت موضوعات الأدب ولم تقتصر على ما اعتاده الأدباء قديمًا، بل خرجت إلى موضوعات أخرى أقرب إلى حياة الناس العَادِيَّة الجَارِيَة، فقالوا في أحوال المجتمع ونَقْدِ بعض وجوه العيب فيه، كما لجؤوا إلى استعمال الأدب في الألغاز والأحاجي، وفي الفكاهة والمجون...

هذا وقد وصل الأدب في أواخر هذا العصر إلى مستوى مُتَدَنٍّ للغاية، حيث اتَّجه الأدباء إلى المبالغة في التنميق اللفظي، فضعف الإنتاج وعُرف الأدب بتَدَهْوُره، وتفاهة معانيه، وسَطْحِيَّة أغراضه، وتكلُّف أساليبه، بسبب قِلَّة المحصول الثقافي لدى الأدباء، وبسبب عدم تفرُّغهم للأدب لانصرافهم إلى حرف مهنية.

أولًا : الشعـــر:

تعدَّدت مذاهب الشعراء في هذا العصر، فمنهم من أخذ بأسباب الفصاحة وقوَّة التعبير، ونَهَجَ نَهْج القدماء، وتتبع طريقتهم مثل: الأبِيوَرْدِي العراقي، وابن المقرَّب الأحسائي، ومنهم من مال إلى طريقة العصر في الإكثار من البَديع، والميل إلى السهولة في أسلوب الشعر، واستخدام الألفاظ العامية أو القريبة منها كصَفِيِّ الدين الحِلِّي، وابن نُبَاتَة المصري. ومنهم من جمع بين الطريقتين كالبُوصيري وعائشة الباعونية[١].

ومن المذهب الأول قول ابن المقرَّب:

مَنَالُ العُلَا بالمُرْهَفَاتِ القَواضِبِ ... وسُمْرِ العَوَالِي والعِتَاقِ الشَّـوَازِبِ[٢]
وَضَرْبٍ يَزِلُّ الهَامَ عَنْ كُلِّ مَاجِدٍ ... عَلَى الهَـوْلِ مِقْدَامٍ كَرِيـمِ المنَـاسِبِ
ولَيْسَ يَنَالُ المجْدَ مَنْ كَانَ هَمُّهُ ... طُرُوقَ الأغَـانِي واعْتِنَـاقَ الحَبَائِبِ
ولَا بَـلَغَ العَلْـيَاءَ إلَّا ابْـنُ حُرَّةٍ ... قَلِيلُ افْتِـكَارٍ في وُقُـوعِ العَوَاقِـبِ
جَرِيْءٌ عَلَى الأعْـدَاءِ مُرٌّ مَـذَاقُهُ ... بَعِيـدُ المَدَى جَـمُّ النَّدَى والمـوَاهِـبِ

فهذا الشعر قريب في روحه من شعر المتنبي، وشبيه به في قوة البناء، وفصاحة الألفاظ.

(١) تكاد هذه المذاهب تنطبق على كلٍ من جاء مع بداية القرن السادس، إذ إن الشعر بعد أبي العلاء المعري الذي كان آخر الشعراء الكبار الموهوبين يمثل اتجاهًا مختلفًا ومرحلة شعرية تختلف عما قبلها، بغضِّ النظر عن الأحداث السياسية.
(٢) المرهفات: السيوف. سمر العوالي: الرماح. العتاق: الخيل الأصيلة. الشوازب : الصلبة.

وأما نهج أصحاب صنعة البديع فمنه قول صفيِّ الدين الحِلِّي في وصف الربيع:

وَرَدَ الـرَّبِيعُ فَـمَـرْحَبًا بِـوُرُودِهِ ... وَبِـنُورِ بَـهْـجَـتِـهِ ونَـوْرِ وُرُودِهِ[1]

وَبِـحُسْنِ مَنْـظَرِهِ وطِيـبِ نَسِيـمِهِ ... وأنِـيقِ مَـلْبَسِـهِ وَوَشْيِ بُـرُودِهِ[2]

فَصْـلٌ إذا افْتَـخَرَ الـزَّمَانُ فَـإِنَّهُ ... إِنْسَـانُ مُقْـلَتِـهِ وَبَـيْتُ قَصِـيدِهِ[3]

يُغْنِي المِـزَاجَ عَـنِ الْعِـلَاجِ نَسِيمُهُ ... بِاللُّطْـفِ عِـنْـدَ هُبُـوبِهِ وَرُكُـودِهِ

يَـا حَبَّـذَا أَزْهَـارُهُ وَثِمَـارُهُ ... ونَبَـاتُ نَـاجِمِهِ وَحَـبُّ حَصِـيدِهِ[4]

والغُصْنُ قَـد كُسِـيَ الغَلَائِلَ بَعْدَمَا ... أَخَـذَتْ يَـدَا كَـانُونَ فِي تَجْـرِيدِهِ[5]

نَـالَ الصِّبا بَعْدَ المَشِيبِ وقَدْ جَرَى ... مَـاءُ الشَّبِيـبَةِ فـي مَنَابِتِ عُـودِهِ

ولعلنا نلاحظ أن هذه الأبياتَ تفيضُ رقةً وسهولة، كما أنها مليئة أيضًا بفنون البديع من طباق وجناس وتورية واقتباس وغيرها، فقد استخدم التورية في البيت الأول في كلمة (بوروده) وجانس عن (وروده، ووروده) وبين كلمتي (نُور، ونَور)، واستخدم الترصيع وهو تقسيم البيت إلى أجزاء متوازنه مسجوعة في البيت الثاني، والتورية في البيت الثالث في كلمتي (إنسان، وبيت)، وطابق بين (هبوبه، وركوده) في البيت الرابع، واستخدم الاقتباس في قوله: (وحب حصيده) في البيت الخامس، والطباق بين (كُسِيَ، وتجريدِه) في البيت السادس، وبين (الصِّبا، والمشيب) في البيت الأخير.

ثم إن في هذه الأبيات صورًا خيالية غاية في الجمال. وقد حرصنا على أن نورد نماذج جيدة من أدب هذا العصر، كيلا نفسد ذوقك بإيراد نماذج رديئة.

---

(١) وروده الأولى: قدومه، والثانية: جمع وردة. ونور الأولى: الضياء، والثانية: براعم الورد.

(٢) الوشي: نقش الثوب. والبرود: الثياب المخططة.

(٣) إنسان مقلته: سواد عينه.

(٤) الناجم والنجم: نبات لا ساق له، أو هو ما نبت بحسب مطالع النجوم.

(٥) الغلائل: مايحيط بالأغصان من الخضرة. كانون: شهر في قلب الشتاء.

وممّا قِيلَ في الشعر المجانس- الذي جانس بين قوافي أبياته جناسًا تامًّا- قول الشاعر:

قِـفْ بالحِـمَى وَدَعِ الـرَّسَائِلْ	وَعَـنِ الأَحِبَّـةِ قِـفْ وَسَـائِلْ
واجْعَـلْ خُضُـوعَـكَ والـتَّذَلْـ	ـلُ فِي طِـلَابِـهِـمُ وَسَـائِلْ
والـدَّمْعُ مِــنْ فَـرْطِ البُـكَا	ءِ عَلَيْـهِـمُ جَـارٍ وَسَـائِلْ
واسْـأَلْ مَـرَاحِـمَـهُمْ فَـهُـنَّ	لِـكُلِّ مَـحْـرُومٍ وَسَـائِلْ

فكلمة (وسائل) في نهاية كل بيت تختلف معانيها، ففي الأول بمعنى (اسأل)، والثانية بمعنى (طُرُق) جمع وسيلة، والثالثة واو العطف، ثم كلمة سائل معنى (جارٍ). والرابعة واو العطف ثم كلمة سائل بمعنى (طالب الإحسان).

ثانيًا: النثـر:

كان أغلب حُكَّام هذا العصر من المماليك أو الأعاجم ضَعِيفي الثقافة العربية، لذا اتخذوا لأنفسهم كُتَّابًا يكتبون الرسائل السلطانية فنشأ ما يُعْرف بديوان الإنشاء، وهو الذي يتولَّى المكاتبات الرسمية، وله شأن عظيم في عصر المماليك ، إذ زادت الحاجة إليه لضبط أمور الدولة، وتحرير الرسائل السُّلْطانية في مختلف الشؤون، وأصبح لديوان الإنشاء أنظمةٌ خاصّة، حتى إن القَلْقَشَنْدي ألَّف كتابه «صُبْح الأعشى» ليجمع لكُتَّاب الديوان ما يحتاجون إليه من معارف. ومن أشهر كُتَّاب الإنشاء القلقشندي، والمقريزي، وابن فضل اللَّه العمري.

وإلى جانب الكتابة الديوانية نجد الكتابة الإخوانية، ويغلب عليها التكلُّف والسجع والمحسنات اللفظية، وتدور حول أغراض كثيرة كالتهنئة، والتعزية، والشكوى، والعتاب، والمداعبة، والمطارحات العلمية.

وكذلك هناك الكتابة الوصفية، والمناظرات الحقيقية والخيالية، والمقامات، وأشهر كُتَّاب هذه الأنواع ابن نباتة المصري، والسيوطي، والشهاب الخفاجي.

وقد كان لضعف الكتابة أسباب منها: ضعف اللغة العربية وانتشار العجمة، وفساد الذوق الأدبي، وضعف الثقافة الأدبية أو قلَّة المحصول العلمي، إضافة إلى عدم تشجيع الأدباء المبدعين، حيث كان الاهتمام مقصورًا على كتَّاب ديوان الإنشاء، وحتى هؤلاء انتهى دورهم باستيلاء العثمانيين على البلاد العربية.

ومن نماذج النثر في هذا العصر مناظرة بين السيف والقلم لابن نُباتة المصري (المتوفى سنة ٧٦٨هـ). ومنها على لسان السيف:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[١] الْحَمْدُ لِلَّهِ الذي جَعَلَ الجنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوف، وشَرَعَ حَدَّهَا بِيَدِ أَهْلِ الطَّاعَةِ عَلَى أَهْلِ العِصْيَان، فأغَصَّتْهُمْ بِمَاءِ الحُتُوف[٢]، وشَيَّدَ بِهَا مَرَاتِبَ الذِينَ يُقَاتِلُونَ في سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوص، وعِقْدٌ مَرْصُوف...».

وقال على لسان القلم يردُّ على السيف:

«أَتُفَاخِرُني وأَنَا لِلوَصْلِ وأَنْتَ لِلقَطْعِ، وأَنَا لِلعَطَاءِ وأَنْتَ لِلمَنْعِ، وأَنَا لِلصُّلْحِ وأَنْتَ لِلضِّرَاب، وأَنَا لِلعِمَارَةِ وأَنْتَ لِلْخَرَاب؟ أَعَلَى مِثْلِي يَشُقُّ القَوْل، ويُرْفَع الصَّوْتُ والصَّوْل، وأَنَا ذو اللَّفْظِ المكِين؟ هيْهَات! أَنَا القَائِمُ بمَصَالِحِ الدُّوَلِ وأَنْتَ في الغِمْدِ طَرِيح، المتْعَبُ في تَمهِيدِهَا وأَنْتَ غَافِلٌ مُسْتَرِيح، والسَّاعِي في تَدْبِير حَالِ القَوْم، والمُغْنِي لِنَفْعِهم العُمْر، وإذَا كَانَ نَفْعُكَ يَوْمًا أو بَعْضَ يَوْم، فاقْطَعْ عَنْكَ أَسْبَابَ المُفَاخَرَة، فَاسْتُرْ أَنْيَابَكَ عَنِ المكَاثَرَة، فَمَا يَحْسُنُ بالصَّامِتِ مُحَاوَرَة المفْصِح، واللَّهُ يَعْلَمُ المفْسِدَ مِنَ المُصْلِحِ...».

---

(١) الحديد: آية ٢٥. (٢) الحتوف: جمع حَتْف، وهو الموت.

ومن نماذج النثر أيضًا ماجاء في «المقامة الساسانية» لشهاب الدين الخفاجي (المتوفى سنة ١٠٦٩هـ) حيث يقول:

«حَدَّثَنَا مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ عن مُسَافِرِ بْنِ يَسَارٍ قَال: كُنْتُ والشَّبَابُ غُرَابُهُ لايُطَار[١]، وَثَمَراتُهُ الجَنِيَّةُ تُجْنَى مِنْ رِيَاضِ الأَخْبَار، أَهْوَى السِّيَاحَةَ والناسُ ناسٌ والدِّيَارُ دِيَار، والدَّهْرُ غِرٌّ لَمْ يَفْطَنْ لِتَلَوُّنِ اللَيْلِ والنَّهار... فَسِرْتُ في الأَرْضِ لِأَنْظُرَ آثارَ رَحْمَتِه، وأَرَى مَآثِرَ الطِّرَازِ الأولِ في أَعْلَامِ حُلَّتِه، فإِنَّ مَنْ جَدَّ وَجَد، ومَنْ تَوَانَى فَقَدْ فَقَد، رَافِعًا عَصَا التَّسْيَار، على كَاهِلِ الاعْتِبَار، رَافِضًا الاسْتِرَاحَةَ في مَهْدِ الدَّعَة، مُشَيِّعًا قَلْبًا فَارَقَ حَبِيبًا وَدَّعَه، أَتَذَرَّعُ بِبَرْدِ اللَيْلِ لأَنهُ أَخْفَى لِلْوَيْل، أَشُقُّ أَدِيمَ النَّهَارِ لِلسَّيْر، ولَمْ أَقُلْ: لَيْسَ لِلْعَصَا سَيْر، كَهَشِيمٍ تَرْفَعُهُ أَعَاصِيرُ ورِيحٌ تَدُور، ووَرَقٌ جَفَّ فَأَلْوَتْ بِهِ الصَّبَا والدَّبُور[٢]...

حتَّى أَتَيْتُ كُورَةَ[٣] خُرَاسَان، فَإِذَا بِهَا قَيْلٌ[٤] نَصَبَ عِرْضَهُ لِسِهَامِ الهَوَان، مُقَلِّدًا في تَرْجِيحِ البُخْلِ مَذْهَبَ سَهْلِ بْنِ هَارُون[٥]، كَأَنهُ لَمْ يَسْمَعْ قَوْلَهُ تَعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٦] فَطَوَيْتُ حَدِيثَهُ عَلَى عُرَّة[٧]، وأَتَيْتُ لِأَقِفَ عَلَى جَلِيَّةِ أَمْرِه، فَلَمَّا جُسْتُ خِلَالَ إِيوَانِه، قَرَأْتُ عُنْوَانَ حَالِهِ عَلَى وُجُوهِ غِلْمَانِه...».

---

(١) غرابه لايطار: أي: أن شعر رأسه لايزال أسود فلم يشب بعد.

(٢) ألوت: طارت. والصبا والدبور: الصبا: ريح تهب من جهة الشرق. والدبور: ريح تهب من جهة الغرب.

(٣) كورة: ناحية، وتطلق على المدينة.

(٤) قيل: أمير أو حاكم.

(٥) سهل بن هارون: أحد البخلاء الذين تكلم عنهم الجاحظ في البخلاء.

(٦) سورة الحشر: آية ٩.

(٧) عُرَّة: عيب.

ومن نماذج النثر أيضًا رسالة في العتاب كتبها أبو بكر الخوارزمي (المتوفى سنة ٧٤٠هـ) حيث يقول:

«كِتَابِي وقَدْ خَرَجْتُ مِنَ البَلاءِ خُرُوجَ السَّيفِ مِنَ الجَلَاءِ[١]، وبُرُوزَ البَدْرِ مِنَ الظَّلْمَاء،وقد فارَقَتْنِي المِحْنَةُ[٢] وهيَ مُفارِقٌ لَا يُشْتَاقُ إليه، ووَدَّعَتْنِي وهي مُوَدِّعٌ لا يُبْكَى عَلَيْه،وَالحَمْدُ للَّه تَعَالى عَلَى مِحْنَةٍ يُجَلِّيهَا، ونِعْمَةٍ يُنِيلُهَا ويُولِيهَا، كُنْتُ أتوَقَّعُ أمْسِ كِتَابَ مَوْلَايَ بِالتَّسْلِيَةِ واليومَ بالتَّهْنِية فَلَمْ يُكَاتِبْنِي في أيامِ البُرَحَاءِ[٣] بأنهَا غَمَّتْه، ولا في أيامِ الرَّخَاءِ بأنَهَا سَرَّتْه، وقَدِ اعْتَذَرْتُ عَنْهُ إلى نَفْسِي وجَادَلْتُ عَنْهُ قَلْبِي فَقُلْتُ: أَمَّا إخْلَالُهُ بالأولى فَلأنَّه شَغَلهُ الاهْتِمَامُ بِهَا عَنِ الكَلَام فيها، وأمَّا تَغَافُلُهُ عَنِ الأُخْرَى فَلأنّه أحَبَّ أن يُوفِّرَ عَلَيَّ مَرْتَبَةَ السَّابِقِ إلى الابْتِدَاء، ويَنْتَصِرَ بِنَفْسِهِ عَلَى مَحَلِّ الاقْتِدَاء، لِتَكُونَ نِعَمُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عليَّ مَوْفُورَةً مِنْ كُلِّ جِهَة، ومَحْفُوفَةً بي مِنْ كُلِّ رُتْبَة، فَإنْ كُنْتُ أحسنتُ الاعْتِذَارَ عَنْ سيِّدِي فَلْيَعْرِفْ لي حَقَّ الإحْسَان، وَلْيَكْتُبْ إليَّ بالاسْتِحْسَان، وإنْ كُنْتُ أسَأْتُ فَلْيُخْبِرْنِي بِعُذْرِه، فَإنهُ أعْرَفُ مِنِّي بِسِرِّه، ولْيَرْضَ مِنِّي بأني حَارَبْتُ عَنْهُ قَلْبِي، واعْتَذَرْتُ عَنْ ذَنْبِهِ كَأَنَّهُ ذَنْبِي، وقُلْتُ يَا نَفْسُ اعْذُرِي أخَاك، وخُذِي مِنْهُ مَا أعْطَاك، فَمَعَ اليَوْمِ غَدٌ والعَوْدُ أحْمَد».

---

(١) أي: صقله بإزالة ماعليه حتى يُرى له لمَعان.

(٢) المحنة: البلية.

(٣) البرحاء: شدة الأذى.

المناقشة :

١- ما المقصود بعصر الدول المتتابعة؟ ولم سُمِّي بهذا الاسم؟
٢- ما أبرز الدول التي حكمت في هذا العصر؟ وكيف كان الوضع السياسي فيه؟
٣- أعدِّدُ بإيجاز أهم مظاهر الحياة الاجتماعية في عصر الدول المتتابعة.
٤- كانت الحركة الفكرية نَشِطَة في عصر الدول المتتابعة. أبيِّن ذلك ثمّ أوضِّحُ مدى صحة إطلاق «عصر الانحطاط» على هذا العصر.
٥- عُرِف هذا العصر بأنه عصر الموسوعات. أذكرُ ثلاثًا منها، مع بيان مؤلِّفيها وما تتناوله كل واحدة منها.
٦- إذا وسَّعْنَا دائرة الأدب- كما هو عند الأمم الأخرى- ليشمل جميع أنواع الإبداع الكتابي فكيف تكون حالة الأدب في عصر الدول المتتابعة؟
٧- كيف نحكم حكمًا موضوعيًا على مستوى الأدب في عصر الدول المتتابعة؟
٨- أعلل لجوء كثير من الشعراء إلى الإفراط في استخدام البديع والتحرُّر من قيود الفصحى.
٩- قال ابن المقرب :

منال العلا بالمرهفات القواضب ... وسمر العوالي والعتاق الشوازب
وَضرب يزلُّ الهامَ عن كلِّ ماجدٍ ... على الهَوْلِ مقدامٍ كريمِ المناسبِ

أ- ما الاتجاه الذي سلكه الشاعر في هذين البيتين؟
ب- تحت أي أغراض الشعر يندرج البيتان؟ وما الفكرة التي يتحدَّث عنها؟
جـ- مامعنى: المرهفات، القواضب، سمر العوالي، العتاق، الهام؟
د- أضبطُ البيت الأول بالشكل، ثم أشرحُ البيت الثاني شرحًا أدبيًّا.

١٠- سلك كثير من الشعراء في عصر الدول المتتابعة طريقة العصر في الإكثار من البديع والميل إلى السهولة. أوضحُ هذا القول في ضوء أبيات صفي الدين الحلي.

١١- جاء في مناظرة ابن نباتة بين السيف والقلم قوله عن السيف: «فأغصَّتهم بماء الحتوف، وشيَّد بها مراتب الذين يقاتلون في سبيله صفًّا كأنهم بنيان مرصوص، وعقد مرصوف...».

أ- أعودُ إلى أحد المراجع وأكتب تعريفًا موجزًا بابن نباتة.

ب- ماذا أعرف عن فن المناظرات؟

جـ- في هذا الجزء من فنون البديع سجع واقتباس وجناس. أحدِّدُ موضع كلٍّ منها.

د- أوضحُ الصورة الجميلة في قوله: «فأغصَّتهم بماء الحتوف».

هـ- أضبطُ الجزء بالشكل ضبطًا كاملًا.

١٢- ما أبرز فنون النثر في عصر الدول المتتابعة؟ وما الأسباب التي أدّت إلى ضَعْف الكتابة فيه؟

١٣- أقرأُ رسالة الخوارزمي في العتاب وأُبيِّن عاطفته فيها كما أراها، ثم أدوِّن ما أعجبني في هذه الرسالة.

والحمد لله أولًا وآخرًا

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين